روز اليوسف

ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي

رأفت عبد الحميد

تقديم : الأنبا غريغوريوس
أسقف البحث العلمي

ملامح الشخصية المصرية

فى

العصر المسيحى

رأفت عبد الحميد

تقديم : الأنبا غريغوريوس
أسقف البحث العلمى

تقـــديم

بقـلم : الانبا غريغوريس

أسقف الدراسات اللاهوتية العليا

والثقافة القبطية والبحث العلمى

أطلعنى الصديق العزيز السيد الدكتور رأفت عبد الحميد على مخطوط كتابه « ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى » وكان كريما سـمحا اذ طلب الى أن انقد كتابه كما أشاء وبما أشـاء ، وأن أهاجمه اذا لزم الامر . فقلت ربما يكون نقدى بالثنـاء على عملكم ، والاعجاب بما كتبتم . فقال بسعة صدر العلماء الأمناء : انى أرحب بنقـدكم للكتاب ،والتنبيه الى كل ماترونه موجها للتصحيح . فشكرت لسيادته هذه الروح الجميلة ، ودعوت له بالخير والبركة ، وتمنيت على الله أن يكون التوفيق رائده ، واطرادالتقدم دائما طريقه الصاعد الى غير نهاية ...

١ ــ والحق انني قرأت الكتاب بلذة وسرور ، وقد كنت أخشى من نفسى أن يتأخر الكتاب بين يدى عن الموعد المضروب بيننا للفراغ من قراءته ، تحت ضغط العمل المتواصل ، والمهام المتنوعة المتشعبة التى تغرقنى . ولكنى احتراما للوعد عكفت على قراءة الكتاب فى خلوة ، واستغرقت فى قراءته بمتعة كبيرة ، وفرغت منه فى يوم واحد . وهذه شهادة أسجلها، تحية للكتاب ومؤلفه العالم.

٢ ــ لقد راعنى فى المؤلف مقدرته على التركيز والايجاز ، وانه وضع للكتاب خطة احترمها بدقة بالغة ، ولم يستهوه الاسترسال فى الاطناب ، ولا الاستطراد فى غير داع ، فكان أمينا لمنهجه الذى رسمه ، مما يستحق عليه التهنئة .

٣ ــ والكتاب قطعة من التاريخ ممتازة ، أبرز فيها المؤلف ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، وتخير أسباب امتياز الشخصية المصرية القبطية ومناحى تفوقها ومظاهر سموها ، وانها دائما شخصية كريمة عالية شريفة ، طامحة ، لاتقبل الاستذلال ولا ترضى بالمهانة ، ولا تخضع للاستكانة . فالروح المصرية الاصيلة روح عالية نبيلة غير مستكينة وغير ذليلة . انها تعمل بغير

توقف ، وتجاهد بغير ملل ، وتكافح بغير تردد ، وتناضل بغير هوادة . لاتقنع بغير التفوق والامتياز . ومن هنا فهى دائما متحركة فى اتجاه أمامى أو فوقى صاعد .... وحتى اذا اتجهت الى الرهبنة . فليست الرهبنة فيها استكانة فى الروح أو عزوفا عن العمل أو ركودا عن الجهاد أو قعودا عن النشاط ، كما يبدو للسطحيين من الناس . لكنها جهاد من نوع آخر ، من أجل تقويم النفس واعادة تربيتها على أساس أعمق ، وصقل لمواهبها بعد معاناة باطنية فى فحص أعماق النفس واكتشافها لذاتها ، ومعرفة النفس للنفس ، واستغلال هذه المعرفة للبناء والتعمير على أساس واضح مستنير ، ثم النمو والتقدم والارتقاء بغير حدود أو قيود أو سدود ، الى مالا نهاية ، حيث أن الحياة لنا هى بغير نهاية ، وليس الموت منها الا علامة على انتهاء أول مرحلة من مراحل الحياة التى لا نهاية لها ...

٤ ــ بهذه الروح وصل المصرى الى امتياز حتى فى الفكر الرهبانى ، امتياز لم يدركه فى غاياته وأهدافه وأطرافه العليا حتى الذين بهرتهم من شعوب أخرى بعض مظاهر جماله وبعض فوائده .

لكن الروح المصرية قد برز امتيازها أيضا لا في الفكر الرهباني الروحاني وحده بل وفي الفكر اللاهوتي • لقد تميز المصري بتقواه وتدينه ، وببساطته في دينه ، واطمئنانه الى اعتقاده بالله والحياة الأخرى، ونفذ الدين الى أعماق نفسه فألهمه أسلوب الحياة الدنيا وطرائقها ، فلم يفصل بين الدين وبين الحياة • وانما امتزج عنده الدين بالحياة • فصارت الحياة الدنيا نفسها مليئة بالدين • الدين سدتها ولحمتها • يتنفس الدين ، ويحياه ، من صباحه الى مسائه ، ويعبر عنه في حركته وسكونه ، في البيت وفي الحقل وفي المصنع وفي الشارع ، في حياته الخاصة ، وفي حياته الأسرية والعائلية ، وفي حياته العامة والاجتماعية • الله عنده يملأ لا الوجود الخارجي وحده ، بل يملأ عليه وجوده الخاص • والاعتقاد بالحياة الاخرى عنده ليس نظرية جدلية يستخدمها حينا دون حين ، عندما يدخل في جدل ونقاش حولها بينه وبين الاغيار • لا ، ان الاعتقاد في الحياة الأخرى نفذ عند المصرى الى قلبه ومداخل نفسه ، وبلغ الى مفاصله وعروقه وأعصابه ، وكمن في خلايا جسمه ، وفي كل ذرة من وجوده وكيانه ، وصار يغلي به دمه ، ويخرج من أنفاسه حين

يتنفس ، ومع عرقه عندما يعـرق ، وتلونت به عيناه ، وصار ينظر الى الحياة متأثرا دائما بهـذا اللون وهذه النظرة العميقة التى ليست عنده الا تعبيرا بل طفحا عما امتلأت به نفسه ثم فاضـت به روحه ...

ولذا عاش المصرى دائما لا لحاضره فقط بل بلغ الايمان بالاخـرى عقيـدة انعقدت عليهـا روحه ، فاصطبغ كل شىء عنده بالقيم الروحية الأبدية .

هكذا صارت العقيدة عنده ثمينة غاليـة لأنها ملأت عليه كل حياته وكل كيـانه ، وارتبطت العقيدة به ، فصارت جزءا من طبيعتـه بل هى طبيعته ، أو قل أصبح بها ومعها طبيعة واحدة بغير افتراق ، أو انفصال ، أو تقسيم .

من هنا كان تمسك المصرى بدينه ، واستمساكه بعقيدته ، وحرصه عليها وتعلقه بها . ولن نجـد فى العالم كله كالانسان المصرى ، فى مثـل حبـه لدينه وثباته على عقيدته ، وصموده أمام العواصف المضادة . ولقد ساد المثل قديما «ان تحويل جبل عن موضعه أيسر من تحويل قبطى أو مصرى عن عقيدته » .

٥ ـ ومن هنا أيضـــا كان بروز المصريين فى الاســــتشهاد • ان أباطرة الوثنيين كانوا يرون المصريين أكثر الشعوب عنـادا واصرارا • ولذلك اختصوهم بنصيب أوفر من العنت والاضـطهاد • وكان ديوقلديانوس يرى المسيحية بمثابة حية لن يجد لنفسه وللكه راحة الا بالقضاء عليها • عـلى انه كان يرى أن رأس تلك الحية كامن فى مصر • ولذلك جاءبنفسه الىمصر ، وأقسم بآلهتهالوثنية، انه سيعمل بسيفه في رقاب المسيحيين تشـفيا وانتقاما وحقدا ، وانه لن يكف عن ذبح المسيحيين بيده ، حتى تغوص سنابك جواده فىبحر مندماء المسيحيين • وقد جاء فعلا ، وبر بما وعد وتوعد• ولذلك نعت المؤرخـون اضطهاده ، بأكثر جميـع الاضطهادات عنتا وعنفا • وبدأ الاقباط بالسـنة التى ارتقى فيها عرش الامبراطورية ـ وهى سنة ٢٨٤ ميلادية ـ حلقة جديدة من تاريخهم المصرى القديم ، عرفت فىالتاريخ المصرى بتاريخ الشهداء، وفيه تبدأ السنة القبطية •

لقد ذهب ديوقليديانوس ومات وشـبع موتا ، كما ذهب غيره من الأباطرة الذين اضــــــطهدوا المصريين ،وماتوا أيضا وشبعوا موتا ، ولكنعاشت الروح المصرية الصامدة ، عالية سامقة شريفةتأبى

القهر والاستبداد . وعاش المصريون أقوياء صامدين بايمانهم وعقيدتهم واستمساكهم بدينهم وحفاظهم على تراثهم القديم .

أن روح البسالة فيشعبنا قديمة . مصر دائما وأبدا أبت الهزيمة ، ورفضت القهر والذل ، هي روح لاتموت .. وهي تقبل الاستشهاد فيسبيل العقيدة والايمان حبا وعبادة ، لأنها لاتؤمن بالموت بل تؤمن بالحياة ، ولا تصدق بالفناء بل تعتقد بالخلود .. وقد قال السيد المسيح «لاتخافوا ممن يقتل الجسد ، ولكنه لايقدر أن يقتل النفس . بل خافوا بالأحرى ممن يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم» (متى ١٠ : ٢٨) .

٦ ـ لقد شرح الدكتور رأفت عبد الحميد في كتابه القيم بروز الروح المصرية في الرهبانية ، وفي الاستشهاد ، وأضاف بروزها في الفكر اللاهوتي ، مبينا الدور القيادي الذي قامت به كنيسة الاسكندرية في التاريخ المسيحي وخصوصا في تلك الفترة التيكان لها ثقلها في شرح العقيدة الدينية وتأصيلها ، ووضع صيغ ايمانية تحدد العقيدة وتحميها من تيارات الفكر الفلسفي والانساني . فكان دور القديس اثناسيوس في

كنيسة الاسكندرية أعظم دور صان المسيحية وحماها من انحرافات الفكر الاريوسى ... وكان دور القديس كيرلس الاسكندرى أبرز دور فى قيادة الفكر المسيحى فى حماية العقيدة المسيحية من انحرافات الفكر النسطورى ... وكان دور القديس ديوسقورس الاسكندرى فى المحافظة على التراث المسيحى ضد الحروب العاتية الضارية التى أثارها ملوك بيزنطة الذين استغلوا سلطانهم ليقهروا الأقباط على قبول اعتقاد يغاير اعتقادهم القديم الذى تسلموه من آبائهم ..

هذا الدورالطليعى القيادى الذى قام به أساقفة الاسكندرية وبطاركتها ، دور لاهوتى لفت العالم بأسره الى ماتميزت به الروح المصرية من الأصالة وعمق الفهم ، والتضلع فى العلوم الالهية والانسانية ... فكان رأى باباوات الاسكندرية دائما هو القول الفصل ، مبنيا على الحكمة والمعرفة، والعلم الراسخ الرصين ، فضلا عن الروحانية والتقوى والغيرة المقدسة ، وقوة الحجة ، والقدرة على الايغال فى الانظار اللاهوتية ... فكان النصر دائما للفكر الاسكندرى ... لقد ذهب اريوس ، وقضى على مذهبه ، وعاش الفكر الأثناسيوسى معبرا عن الايمان المسيحى الاصيل . وها هو

العالم المسيحى كله شرقا وغربا يشعر بقيمة الدور البطولى الذى قام به اثناسيوس ، محتملا كل صنوف العذاب والنفى والتشريد خمسين سنة من الزمان ، والكل يحنى رأسه اجلالا لهذا البطل المصرى العظيم الذى وقف كالجبل الأشم صامدا أمام العواصف التى هبت عليه عاتية من الداخل والخارج ، ووقف فى وجه الامبراطورية البيزنطية بملوكها المتعاقبين فى زمانه ، وبكل مالهم من سلطان وقوة وعنف ... وانتصر أخيرا .. وكان نصره هو نصر المسيحية كلها .

وذهب نسطور وكل الذين ناصروه .. وعاش كيرلس الاسكندرى البطل المغوار حيا فى شعور كل مسيحى . وآمن الكل ان ماقاله كيرلس ، واحتمل فى سبيله كل ضيم وعذاب . يقوله اليوم كل مسيحى . فكان كيرلس خير معبر عن الايمان المسيحى فى صفائه ونقائه .. واليوم يحنى جميع المسيحيين هاماتهم للبطل الاسكندرى ، ويعتبرونه أبا لهم جميعا يدينون له بالولاء ، ولتعبيره وتفسيره الدينى بالتقديس والاكبار ...

وحتى البابا ديسقورس الذى اتهموه وقتا ما بالانحياز الى يوطاخى المنحرف الضال ، وانقسمت

من بعده الكنيسة الجامعة الى شرقية وغربيـة ..
يجمع اليوم كل اللاهوتيين فى العالم على ان ايمان
ديوسقورس كان ايمانا سليما صـحيحا ، وأن
الاتهام الذى اتهموه به كان اتهـاما ظالما مـدفوعا
بالحقد عليه نظرا لعناده ضد الامبراطور البيزنطى
والمالئين له .

٧ ـ وهذا يقودنا الى ميزة عظيمـة من ميزات
الروح المصرية كما شرحهـا شرحا جيدا الدكتـور
رأفت عبد الحميد فى كتابه الثمين .. وهى روح
الصمود والاباء التى برز بها آباء الاسـكندرية ،
فكانوا بصمودهم وشجاعتهم واباؤهم شوكة قاسية
عنيدة فى جنوب ملوك بيزنطة الذين أرادوا أن يقهروا
المصريين على قبول صـيغة ايمانيـة تتعارض مـع
ايمانهم واعتقادهم ، حبا فى صـبغ كل شـعوب
الامبراطورية بصبغة واحدة ، وهى الصبغة التى
أرادها ملوك بيزنطـة .. فوجـدوا فى المصريين
العناد ، والاصرار ، والاباء ، والصمود ، والرفض
بكل شجاعة . ولا يقوى على الصمود الا الاقوياء
فى الروح ، غير الطامعين فى الدنيا ، الزاهدون فى
بهرجها وزخرفها ، الناظرون الى الحيـاة الأبدية ،
المناضلون فى سبيل مبادىء الحق والخير والكمال .

● ● ●

في كل ذلك الذى ذكرناه كان المؤلف العالم ، مجيدا وجميلا ورائعا .

٨ ـ فاذا كان لى ـ تحقيقا لرغبة المؤلف ـ أن أنبه الى أمر لا أرتضيه في كتابه ، فأقول على حذر، انني أشفق على القارىء أن لايتحفظ لنفسه من تصوير المؤلف العالم للنزاع الفكرى واللاهوتى الذى نشب فى القرنين الرابع والخامس بأنه محض «نزاع على الزعامة والسيادة بين الاسقفيات ،وأنه صراع على احراز السيادة العالمية الكنسية ، اتخذ من موضوع طبيعة المسيح معركة اقتتل فيها ومن حولها الجميع متخذين منها ستارا يحجب هوى النفس» .

قد يكون المؤلف محقا لو انه جعل هذا النزاع على احراز السيادة والسلطة عاملا كأحد العوامل. اما أن يصبح هذا العامل هو العامل بالألف واللام ـ كما يفهم من عبارة المؤلف ـ فهذا تضخيم وتكبير ومغالاة على الحق . ولابد للانصاف من أن نقول ان هذا النزاع اللاهوتى كان خيرا على الكنيسة ، على الرغم مما صحبه من مآس . فالنزاع الفكرى قد ساعد على وضوح المفاهيم الدينية ،بصورة متعمقة مدروسة ، شأنه فى ذلك شأن كل أنواع النزاع

الفكرى ، الفلسفي والعلمي • ولولا هـذا النزاع لماكان علم ، ولمـا كانت فلسـفة ، ولما كان خـير للبشرية ••• ولقـد أنتج هـذا النزاع الفـكرى مواقف وبطولات ، كما أنتج صـياغات وتعبيرات لاهوتية دقيقة عـرفت بقانون الايمان ودسـتور العقيدة ، لولا الصراع والنزاع لما كان لها اليـوم وجود •• بل ان هذا الصراع والنزاع هـو الذى أضاف الى حصيلة الانتاج البشرى والدينى كتبـا وتواليف تعد اليوم تراثا للبشرية ينفعها لحاضرها ومستقبلها فضلا عن كشفه لماضيها •

ثم ان النزاع على السـيادة والزعامة قد يكون عند البعض ولا يكون عند الكل ••• واذا كان عند البعض أو حتى عند الـكل ، فليس من الخـير أن نضخم من دور هذا العامل بصورة تطمس غيره من العوامل النبيلة التى لابد أن تكون موجودة ، عند البعض حتى ولو لم تكن عند الكل • واذا أردنا أن نعطى لهذا العامل مـركزه الطبيعى فنحن نشبهه بالتنافس بين الناس • والتنافس عامل مرغـوب فيه لانه ينتج خيرا ••• اذا أحسن الانتفـاع منه للخـير وللبنيـان ، واذا وجـه التوجيـه النفسى والاجتماعى السليم ، ولربما يكون خير تعبير فى مانحن بصدده قول الشاعر العربى :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت
أتاح لهـــا لسان حســود .

٩ ـــ وملاحظتنا الثانيةعلى كتاب المؤلف هو أنه على مايبدو ، كان متأثرا فى عرضه لموضوع الخلاف على طبيعةالمسيح ببعض المصادر الغربية . ويظهر هــذا خصــوصا فيمــا نسبه الى البــــابا ديوســـــقورس من أنــــه انســـاق الى رأى يوطيخا وأيده . وهذا اتهام قد عدل عنه اليــوم اللاهوتيون فى الغــرب ، وصاروا اليوم يبرئون ساحة ذلك البطل السكندرى ويقولون : انه اتهام ظـــالم خلقه موقف ديوســـقورس العنية من الامبراطور البيزنطى مرقيانوس وزوجته بوليكاريا التى كانت تحقد على ديوسقورس حقدا شديدا ، وكل من شايع الامبراطور والامبراطورة من أعضاء مجمع خلقيدونية الــذى سيطر عليــه رجــال الامبراطور .

ان يوطيخا فى فكره المنحرف أراد أن يتمســك بعبارة القديس كيرلس الاسكندرى التى فسر بها كيفية الاتحاد بين لاهوت المسيح وناسوته ، فقال عن المسيح أنه بهذا الاتحاد كانت له طبيعة واحدة. قال البابا كيرلس عن المسيح «طبيعة واحدة للكلمة

المتجسد» وعلى الرغم من اخلاص يوطيخا لتفسير البابا كيرلس ، الا أنه لم يفهمه فى عمق واصالة • ففسر واحدية الطبيعة على انها الطبيعة اللاهوتية دون الناسوتية • لانه طبقا لمنطقه اذا اجتمع اللاهوت والناسوت ، فاللاهوت هو الغالب • أما الناسوت أو انسانية المسيح فليست شيئا ازاء لاهوته • ان انسانية المسيح هى بمثابة نقطة من الخل ألقيت فى بحر أو محيط من الماء ، فلابد أن تغوص فى الماء ويبتلعها البحر لانها ليست شيئا بالقياس الى البحر • هكذا زعم يوطيخا أن لاهوت المسيح قد امتص ناسوته ، فضاع الناسوت وزال وامحى وتلاشى • وعلى ذلك فالطبيعة الواحدة عنده هى الطبيعة اللاهوتية وحدها ، لان الطبيعة الناسوتية فى ظنه قد زالت وتلاشت ••

وهذا الذى قاله يوطيخا لم يقبله ديوسقورس ولا يمكن أن يقبله ، لأن ديوسقورس كان تلميذا مخلصا لسابقه ومعلمه وأبيه كيرلس الاسكندرى الذى قال «بطبيعة واحدة للكلمة المتجسد» والعبارة نفسها تحمل الاعتراف بالجسد ، ولكن يوطيخا نفسه اعتذر عن موقفه وأعلن توبته عن رأيه • لذلك قبله البابا ديوسقورس كتائب • فنسبوا

خطأ وظلما الى ديوسقورس انه مؤيد ليوطيخا • وهذا اتهام عدل عنه لاهوتيو الغرب ،واعترفوا انه اتهام ظالم مسوق بحقد الامبراطور البيزنطى مرقيان ومن ورائه زوجته بوليكاريا ومن انساق وراءهما •

١٠ ـ وملاحظة ثالثة ، بالنسبة الى عقيدة كنيسة الاسكندرية التى يقول المؤلف فى أكثر من موضع انها « قائمة على ابراز الطبيعة اللاهوتية فى المسيح وانه لهذا السبب عرف المسيحيون فى مصر بأصحاب الطبيعة الواحدة » •

ان عقيدة المسيحيين فى مصر هى نفسها العقيدة المسيحية المستقاة من كتبهم المقدسة والتى فسرها وعبر عنها آباء الكنيسة الكبار من أمثال اثناسيوس وكيرلس وديوسقورس • وهى تتلخص فى أن المسيح عندهم هو الاله الانسان أو الاله المتأنس ، اتحد فيه الاله بالانسان ، اللاهوت بالناسوت ، اتحادا تاما كاملا ، لكنه اتحاد من دون اختلاط بين اللاهوت والناسوت ، ومن دون امتزاج بينهما ، ومن دون تغير اللاهوت الى الناسوت أو الناسوت الى اللاهوت • ليس هذا الاتحاد كمثله شىء ••

انه اتحاد لايعبر عنه ، ولا يوصف . وعلى سبيل التقريب للعقل البشرى ، يمكن ــ والقياس مع الفارق ــ أن يقال انه كاتحاد النار بالحديد عندما يوضع قضيب من حديد فى النار لفترة طويلة ، فيتحد الحديد بالنار اتحادا يجمع بين صفات النار وصفات الحديد ... وصفات النار هى الاضاءة والاحراق ، وصفات الحديد هى الصلابة والوزن.. فى قضيب الحديد الملتهب اتحدت النار بالحديد من دون أن يتحول الحديد الى نار أو النار الى الحديد ، هكذا ــ ولكن من دون أن يكون هذا المثال دقيقا تماما ــ يمكن أن نفهم اتحاد اللاهوت بالناسوت اتحادا تاما من دون اختلاط بين الطبيعتين أو امتزاج أو تغيير احداهما الى الاخرى . فالاتحاد الذى تقول به كنيسة الاسكندرية ، والكنائس الشرقية القديمة ، هو اتحاد كامل بين اللاهوت والناسوت . وما دام هناك اتحاد ، فقد صار اللاهوت والناسوت واحدا ، طبيعة واحدة لا طبيعتين ، .. طبيعة واحدة من طبيعتين ، ... طبيعة واحدة لها كل خصائص الطبيعتين معا ، ولها ارادة واحدة ومشيئة واحدة ... ربما ، كما هو الحال فى الانسان : هو روح من الله وجسد من

الارض ، اتحدا ، فصارا معا طبيعة واحــــدة هي مايسمى بالطبيعة البشرية • والطبيعـة البشرية ليست روحا صرفا ، ولا جســدا صرفا ، ولـكنها تجمع الروح والجسـد في كل واحـد ، من غـير انقسام • والفرق بين الاتحاد بين عنصرى الانسان • والاتحاد بين اللاهوت والناسوت في المسيح ، ان الاتحاد في الانسان قابل للانفصال بالموت • أما الاتحاد الذى تم في تجسد الكلمة ، فقد صار اتحادا تاما لايقبل الانفصال أو الافتراق •

١١ ـ وهنا نأتى الى الملاحظة الرابعـة ـ فان المؤلف يقول في أكثر من موضع « كانت طبيعـة المسيح ، بشر أم اله ، المعركة التى اقتتـــل فيها ومن حولها الجميع» •

وأحب أن أقول : ان المسيحيين كانوا ولا زالوا مجمعين على أن المسيح اله متأنس ، جمـع بين الله والانسان ، بين اللاهوت والناسوت • وكان الخلاف الذى ثار في القرن الرابع بين الأطراف ، محـوره الحقيقى هو تفسير العلاقة بين اللاهوت والناسوت في المسيح ، ثم التعبير السليم عن هذه العلاقة في لغة بشرية لاتجرح حقيقة هذا الاتحاد • فالغربيون في مجمع خلقيدونية قالوا بأن الطبيعتين في المسيح

متحدتان ... فالمسيح شخص واحد أو اقنوم واحد فى طبيعتين متحدتين ... أما كنيسة الاسكندرية ومعهاالكنائس الشرقية القديمةفتقول ان المسيح شخص واحد واقنوم واحد وطبيعة واحدة من طبيعتين ... على انها طبيعة واحدة لها جميع خصائص الطبيعتين معا . وكان البابا ب ((قديسون)) فقد جعل المؤلف من القديس الشهيد خلقيدونية ويقول : اننى أقبل الكلام عن طبيعتين قبل الاتحاد ، أى قبل التجسد ، أما بعد الاتحاد فلا أستطيع أن أتكلم الا عن طبيعة واحدة من طبيعتين ...

والخلاصة انالمعركة هى معركة تفسير ،ومعركة تعبير عن حقيقة يجمع عليها الكل ان المسيح اله متأنس ، فيه اتحد اللاهوت والناسوت معا اتحادا لايقبل الافتراق أو الانقسام ..

١٢ ـ والملاحظة السادسة هى الفصل الموسوم بـ ((قديسون)) فقد جعل المؤلفمنالقديس الشهيد مارجرجس الكبادوكى صاحب المعجزات الشهير ، ومن الأسقف الدخيل جورجيوس الذى عينه الامبراطور البيزنطىبديلا عن القديس اثناسيوس

الرسولى فى منفاه ... أقول ان المؤلف جعل من هاتين الشخصيتين المختلفتين شخصا واحدا .

وليس الامر كذلك ... فان القديس مارجرجس رجل عسكرى ، ارتقى فى سلك الجندية ، جنديا فضابطا فقائدا ، لكنه لم يصر يوما ما أسقفا أو قسيسا أو شماسا ، ولم يمارس عملا من أعمال الكهنوت الى يوم استشهاده .. ثم انه لم يطل به الزمن الى أيام القديس اثناسيوس الرسولى ... اذ المعروف انه مات شهيدا نحو ٣٠٣ م فى زمن الامبراطور ديوقليديانوس (٢٤٥ - ٣١٣) الذى سبق عهد اثناسيوس بوقت طويل . اذ أن أثناسيونس صار بطريركا فى سنة ٣٢٨ ، ولم يعين جورجيوس الكبادوكى أسقفا بديلا عنه الا بعد هذا التاريخ بسنوات .

●●

تلك هى أهم ملاحظات رأيت الاشارة اليها ، نزولا على رغبة السيد الدكتور رأفت عبد الحميد ، وهى ملاحظات لاتنقص من قيمة الكتاب ولاتخدش جماله فى العرض ، وجماله فى الاسلوب . وما اشتمل عليه الكتاب من علم غزير ، ومعرفة واسعة بمشكلة هى بطبيعتها صعبة .

مرة أخرى اثنى على المؤلف العالم ، وأشكر له فضله ، وأرجو لكتابه الذيوع والانتشار .

والله ولى التوفيق ؟

الأنبا غريغوريوس
أسقف الدراسات اللاهوتية العليا
والثقافة القبطية والبحث العلمى

٩ ديسمبر (كانون أول) ١٩٧٣
٣٠ هاتور ١٦٩٠

ملامح الشــــخصية المصرية

فى

العصر المســيحى

« لا تحاولوا أن تبنوا رأيا حول موضوع .. أو تصدروا فيه حكما قاطعا ... قبل أن تصلوا الى نهايته » .

هيلارى أسقف بواتييه

الفـــاتحة

هذا الكتاب ليس تاريخا للمسيحية في مصر .

ولا قصة لحياة الكنيسة فيها .

ولكنها مواقف .. نبض حياة .. رايت فيهـــا مصر .. بســـبقها .. بفكرها وثقافتها .. بعنــادها دفاعا عن المبدأ وصلابتها .. بزعامتها .. بالروحانيـــة في شـــعبها .. بحبها للحرية ورفضها لجبروت السلطان .

رأيت مصر بكل هذا في فترة واحدة فقط من تاريخهـــا الطويل .. فكيف هي اذن طوال التاريخ .

يســـبقها عنـــدما قدمت لدنيـــا المسيحية .. في عالم غرق بالماديات طريق النجاة زهدا ورهبانية .

بفكرها وثقافتها .. عندما شغلت عقل العالم المسيحي قرابة قرن من

الزمان جـدالا من حول المسيح ..
مولود هو أم مخلوق .

بعنادها دفاعا عن المبدأ وصلابتها
لحظة أخرجت للكنيسة الارثوذكسية
الجامعـة .. رجلا أزعج سـلطان
الاباطرة فى الشـرق .. وأحنى له
الغرب الهام عرفانا .

بزعامتها حين جاءت اليها الكنائس
تسعى .. تخطب ودها .. وتنتظر
في أمر العقيدة .. القول الفصل من
كنيستها .

بالروحانية فى شعبها وهو يحيل
بعض أحـداث التاريخ الى قصص
للبطولة .. وملاحم شعبية تصل الى
غيبيات معجزة .. فأسـطورة ..
تبدو وكأنها من بعد الحقيقة ذاتها .

بحبها للحرية .. ورفضها لجبروت
السلطان .. وهى تنأى بنفسـها عن
اناس أرادوا قهر الايمان فيها رغم
وحـدة العقيـدة معهم .. وتفتح

ذراعيها بالحب كله .. تستقبل أغصان السلام .

انها مصر فى حلقة واحدة من عمرها الطويل .

وهى فى كل هذا ليست مصر الافراد .. ولكنها مصر الحياة .

ليست مصر الكلمة .. ولكنها مصر الروح .

ليس اسم مصر .. ولكن مصر ذاتها .

وقد أختلف مع البعض ممن يضعون على عيونهم منظار الحمية جهالة .. بل ما من شك فى أن هذا الاختلاف واقع لا محالة ، خاصة عندما يتطرق الحديث الى جوهر العقيدة .. أو مفاهيم معينة ترسبت فى أعماق الأنفس حتى أضحت لديها حقيقة لا تقبل طرحا لجدل أو مناقشة ولا يجب الاقتراب منها أو المساس بها حفاظا على قدسية أحاطت بها..

ولكن البحث العلمى الموضوعى الجاد لا يعترف بحدود العاطفة هـذه .. قد يقـدر لها قيمتها التاريخيـة .. ولكنه لا يتركها دون تبيان .

وقد تعرضت بطبيعة الحال لآراء عقيـدية لفظتها الكنيسة واعتبرتها هرطقة .. ولعنتها وأصـحابها .. ولكنى حرصت الحرص كله على أن ألتزم الموضوعية التامة والحياد .. وحاولت أن أكون أمينا فى مناقشتى لآراء خصوم الكنيسة قدر أمانتى فى عرض آراء الكنيسة ذاتها . هـذا بالاضافة الى أن تناولى لهذه الآراء المتضادة جاء من وجهة نظر علمانية صرفة ، فلست أدعى المعرفة بأدق أسرار وغوامض اللاهوت المسيحى، كما أن حديثى عنها لا يدخل فى مجال المقارنة بين بعضـها البعض ، أو تفضيل أحد هذه الآراء على الاخرى .. مجرد وجهة نظر علمانية موضوعية لا اتصال لها مطلقا بالمسألة اللاهوتية فى حد ذاتها .

ولم يكن هذا العرض على النحـــو الذى تم به مقصودا لذاته .. بل كان هدفى منـــه ايضاح الدور الفـــكرى البارز الذى قامت به مصر بكنيســـة الاسكندرية فى العـــالم المسيحى كله والاثر الكبير الذى أحدثه هذا الفكر فى تراث المسيحية بعامة . ولعله مما يزيد من أهمية هذا الدور أن مصـــر كانت آنئـــذ ضـــمن دائرة النفـــوذ البيزنطى طيلة قرون ثلاثة من الرابع الى السابع .. ولكنها تصدت بكل الجهد .. فـــكرا .. وعقيـــدة .. وثورة . وكانت مصـــادرى الاولى والاساسية فى هذا الشأن .. ماخطه بأقلامهم مؤرخو الكنيســـة .. الذين عاصروا تلك الإحداث.. أو المحدثون منهم ...

ذلك مبلغى من العلم .

فان أصبت فمن الله .

واذا أخطأت فمن نفسى .

رأفت عبد الحميد

القاهرة فى أكتوبر ١٩٧٣

هــدية مصـــــر الى دنيـــــا المســيحية

اذا كان بولس الـــــراهب
المصرى هـــو أول من وضــــع
نسق هـــذه الحيـــاة .. فان
انطونى هو المؤسس الحقيقى
والرائد لنظم الرهبنـــة والاب
الشرعى للســالكين ســــبل
البيــد حيـــــــاة ...

القديس جيروم

فى درب العذاب .. مشى المسيح وحواريوه وأتباعه رحــلة الحيـــاة .. جمع وجمـــوع .. احتواها الدرب . منهم من آمن ومنهم من نكص ، بعض آثر حياة الحرمان والضياع فأسرى بعقيدته ليلا من حلكة الظلام الى حيث يبتغى الســـلامة والسلام .. وبعض رافقه .. هوى العز والجاه فأسلم ما لديه من ايمان تنفيذا لمشيئة القهر .. وأخير .. رفض الاذعان وناوأ جبروت السلطان

فكانت له الشـــهادة الجزاء .. ورفعت قلة من الهوة يد الاقدار ..!

ثلاثة قرون ســـويا ، قضـــاها المســـيحيون ، يقذفون بالويل من كل جانب بكرة وعشـــيا .. اليهود .. والرومان النـــــاس .. والاباطرة الرومان .

أما اليهود فقد أبصروا ماضيهم وقد تعرضوا بسلوكهم لتاريخ من الشتات طويل وطويل .. بدأ بالآشوريين ثم البابليين فالفرس فالاغريق .. ثم الرومان فى النهاية . ولذا راود اليهود أمل فى خلاص من رب الجنود يرفع عنهم به ظلم عباد الاوثان . مسيا يجدد لهم مملكة داود وسـليمان وعهدا من سلام بعد طول عناء . غير أن اليهود أصـيبوا بخيبة الامل .. جاءهم المســيح يزين ملكوت السماوات ، ويقلب موائد الصيارفة فى الهيكل .. فحانت ساعة الصدوقيين والفريسيين والكتبة . فكفروا بالمسيح وبشراه .. ونالوا منه وناسه .. وآذوا ، وراحوا يؤلبون عليه جموع الرومان. .فلقى المسيحيون من اليهود كبيرعنت.

واذا كان التصـــور قد شاع بخطر المسيحية على العالم الرومانى ، فقد تباينت وجهات النظر

ازاء هذا الخطر ، فأصحاب المناصب من الطبقة العليا كان لابد وأن يناهضوا هذا الدين الجديد بوصفه يتهدد كيان الدولة القائم على القوة .. من حيث التعارض الواضح بين دعوة السلام التى رفعتها المسيحية شعارا .. والجيش والحرب عدة امبراطوية الرومان . خاصة وأن هؤلاء كانوا يرون أن ديانتهم الوثنية جزء من كيان الحكومة ونظامها .. واعتادوا أن يربطوا بين مجد الدولة وانتصاراتها فى الخارج .. وعظمتها .. وبين الارباب . أما المساواة والتعاطف والفقراء .. قيم المسيحية فكان لابد أن تزيد من حدة الصراع الطبقى .. والارستقراطية الرومانية لم تكن تأمن عقباه .. فردت على المسيحية دعوتها باتهام فحواه أنها تبدد الثروات .. وتمحو عن الشيوخ والنبلاء أصحاب الجاه .. الجاه والوقار .

ونظرة العامة كانت بادىء الامر نظرة التردد والحذر ، لان الواحدية التى جاء بها المسيح من شأنها أن تقوض البانتيون الرومانى الذى سكن جلاله وجدان الناس .. بشموله ومسامحته قبل آلهة الشرق والغرب جميعا .. فهاهى سيبيلى الفريجية .. الام العظيمة .. وايزيس المصرية

ومثراس الفارسى يرتعون هناك بين آلهة الرومان فى قداسة .. فكيف .. وكيف يغزو الدين الجديد اذن قلوب الناس ..؟!

وعلى ذلك عزف المسيحيون عن مجتمع الآلهة وأغلقوا على أنفسهم باب العزوف . ورفضوا مشاركة الرومان أعيادهم .. وحفلاتهم .. ودور تمثيلهم ولهوهم .. وحرموا على أنفسهم الزواج منهم أو تزويجهم .. وأظهروا الشماتة ازاء كل مكروه يلم بالامبراطورية .. وفسروا الكوارث التى انتابت الدولة والحروب التى منيت بالهزيمة فيها ، على أنها تحقيق للنبوءات التى جاءت فى الكتاب المقدس عن تدمير بابل..وعودة المسيح !!

وزاد الامر سوءا أن أثرياء المسيحيين رفضوا تقلد الوظائف العامة ، كما أن جموعهم أبت الانخراط فى سلك الجندية ، من هنا أدرك الرومان أنهم ازاء جماعة منعزلة تأبى الاشتراك فى الحياة العامة .. بل تزدريها وترفض الانخراط فيها ، فقد ملأت الكنيسة عقول أتباعها ووجدانهم بأن الحياة الدنيا أضحت غير ذات بال ، والمسيحيون فيها غرباء .. فموطنهم الاصلى هو السماء .. انهم مواطنون فى مملكة الله الآتية ..

ولهذا لم يؤد المسيحيون أى خدمة للمجتمع الذى يعيشون فيه ، ومن ثم كان سخط الرومان على هذا الدين وعباده .

وكانت مشكلة الاباطرة مشكلة الذات .. فالامبراطور له قداسة على جميع الناس .. تقر واحدية سياسية بين الامبراطورية .. بعد أن أضحت عبادة الامبراطور وتأليهه وروما ، دليلا على السيادة الكاملة لروما والامبراطور .. وكان احراق البخور أمام تمثال الامبراطور قد أصبح رمزا للولاء للامبراطورية وتوكيدا لهذا الولاء . وقد آلم الاباطرة كثيرا أن يجدوا المسيحيين لا يشتركون فى تقديس ذواتهم .. وكانت المسألة بالنسبة للمسيحيين غاية فى الاهمية .. فكيف والحالة هذه يرضي المسيحيون باجلال الامبراطور هوان الشرك !! لقد كان المسيحى يعطى المسيح ولاءه .. وليس قيصرا .. ويجل أسقفه وليس الحاكم . لقد كان ولاء المسيحيين لدينهم فوق الولاء للدولة .

لكل هذا .. وقع المسيحيون فريسة التهمة والنظرة بالخطر على سلامة الدولة وسلامها . ونتيجة لهذه النظرة .. راح المسيحيون يلتقون

خفيـــة ، ويعقدون اجتماعاتهم فى سرية .. مما زاد الطين بلة ، وأوقع بهم تحت دعوى الاتهام بأنهم جماعة ســياسية خطيرة يخشى بأسها .. خاصة وأن الفكر الرومانى كان يرفض تماما قيام هيئة دينية منفصلة عن الدولة .. أو بمعنى آخر دولة داخل الدولة .

لأجل هذا كله .. كراهية اليهود .. وتخوف الاثرياء .. وتقوقع المسيحيين .. ونفور الجموع وارتياب الاباطرة وتوجسهم فى أنفسهم خيفة .. جرى على المســـيحيين الاضـــطهاد من جانب الاباطرة الوثنيين حتى كانت رســالة نيقوميديا ســـنة ٣١٣ ، والتى يســـميها المؤرخون خطأ مرسوم ميلانو .. فوضع بها قسطنطين وليكين الامر عن جماعة المسيحيين .

على أنه من الخطأ ، الذى قد يتورط فيـــه الكثيرون ، الاعتقاد بأن المسيحية لقيت منـــذ اليوم الاول لها الاضطهاد على يد أباطرة الرومان .. فقـــد مضى زمان ليس بالقصـــير قبل أن تجذب المسيحية .. باعتبارها دينـــا جديدا .. أنظار الحكومة الوثنية . فقـــد كانت النظرة للمسيحية بادىء ذى بدء أنهـــا طائفـــة من بين الطوائف اليهودية العديدة المنشـــقة .. شأن السامريين

والآسيين . ومنذ عهد الامبراطور نيرون (٥٤ ـ ٦٨ م) حتى فترة حكم الامبراطور دكيوس (٢٤٩ ـ ٢٥١ م) لم يأخذ الاضطهاد شكلا عاما فى الامبراطورية .. حقيقة افتتح نيرون قائمة الاباطرة المعادين للمسيحية .. وطيلة قرنين تاليين كان الاضطهاد أمرا متفرقا ، لم يصدر به مرسوم امبراطورى .. بل ترك لتقدير الولاة فى ولايات الامبراطورية المختلفة ، وتدلنا على ذلك الرسائل المتبادلة بين الامبراطور تراجان (٩٧ ـ ١١٧) وبلينى الاصغر حاكم بيثينيا فى آسيا الصغرى ، سنة ١١٢ م ، حيث أمر الامبراطور بعدم الجد فى البحث عن المسيحيين وعدم السماع لاتهامات مجهولة .. ولكن اذا وجد المسيحيون ورفضوا اظهار الولاء للآلهة الرومانية ، وقعوا بذلك تحت طائلة العقاب . كذلك أمر الامبراطور هادريان (١١٧ ـ ١٣٨ م) واليه فى آسيا بأن تعطى للمسيحيين فرصة عادلة للدفاع عن أنفسهم فى محاكمة عادلة .. ويجب ألا يتعرض مسيحى للعقوبة الا بعد التحقيق معه ، وأرسل انطونيوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١ م) الى الجمعية العامة فى افسوس رسالة بهذا المعنى . فلما كانت بداية

النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى ، ووقعت الامبراطورية فريسة الاضطرابات والفوضى في الداخل من جميع النواحى الاقتصادية والسياسية والعسكرية .. والاعتداءات الخارجية التى تمثلت فى هجمات الفرس والقبائل الجرمانية .. وظل المسيحيون على سياستهم فى رفض أداء الخدمة العسكرية الا فيما ندر ، واظهار الشماتة تجاه ما حل بالامبراطوية من الكوارث .. والامتناع عن مشاركة الرومان الضراعة الى الارباب .. أو حتى التماس الخلاص والنجاة من ربهم .. جعل الامبراطور دكيوس الاضطهاد ، وقد امتلأ غيظا من هذه الجماعة التى وضعت الآن فى قائمة المتهمين بخيانة الدولة ، اضطهادا عاما فى الامبراطورية بأسرها ضد المسيحيين .. وتصاعدت من بعد طوال نصف قرن قادم وينيف موجات العداء وبالتالى الاضطهاد ضد هذه الجماعة العنيدة ، حتى بلغت ذروتها على عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) وقيصره جاليريوس .. ثم هذا الاخير منفردا (٣٠٥ ـ ٣١١) وماكسيمين دازا (+ ٣١٣). حتى أطلقت الكنيسة على هذه الفترة « عصر

الشهداء » أو « عهد الاضطهاد الاعظم » واتخذت الكنيسة القبطية منها بداية تقويمها .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الاضطهاد أن سيق عدد كبير من المسيحيين الى الموت زمرا ، وهؤلاء امتلأت بهم صفحات الرسالة المطولة التى كتبها رجل البيان الافريقى المعاصر لاكتانتيوس والتى أسماها « عن موت المضطهدين » . وكذلك تاريخ الكنيسة ليوساب أسقف قيسارية وخاصة الكتاب الثامن من مؤلفه الذى عقده للحديث عن « شهداء فلسطين » واذا كانت هذه الروايات تحمل شيئا من مبالغة ، فان فيها كذلك بعضا من حقيقة .

واذا كان نفر ليس باليسير من المسيحيين ، خاصة أثرياءهم ، قد خضعوا للقهر وساروا يقربون للارباب ، ويحرقون البخور أمام تمثال الامبراطور قربانا وارضاء ، فان كثيرين قد فروا بعقيدتهم الى الصحراء .. وكانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا وملاذا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الارض بما رحبت . وشهدت صحارى مصر من النطرون الى طيبة جموعا هائلة من المسيحيين المصريين الذين أفلتوا بدينهم من

قبضـــــة الاباطرة الوثنيين . وعاش بعض من هــؤلاء متوحدا تحتويه صــومعة ، كانت أصلا أطلال قبر أو فجوة كهف ، وآخرون آثروا عيش الجماعة فكانت الاديار .

واذا كان الاضطهاد هو السبب المباشر في نشأة هذا النسق من الحياة الزهدية ، فان حياة المسيح نفســها كانت أنموذجا يحتذى لجموع أتباعه فى هذا الميدان ، كما أن الكتاب المقدس ، وفى عهده الجديد بصفة خاصة امتلأ بالنصوص التى تدعو الى هذا السبيل .

« لا تكنزوا لكم كنوزا على الارض حيث يفسد السـوس والصـــدأ وحيث ينقب الســارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب السارقون ولا يسرقون » . (متى ١٩/٦ ، ٢٠) .

« ... ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع املاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى الســماء وتعـــال واتبعنى » . (متى ٢١/١٩) (مرقس ٢١/١٠) .

« وكل من ترك بيوتا أو اخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقـــولا من اجل

اسمى يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الابدية » .
(متى ٢٩/١٩) . (مرقس ٢٩/١٠ ، ٣٠) .

« وأعداء الانسان أهل بيته . من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى ». (متى ٢٦/١٠ ، ٢٧) .

« ... ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات ، من استطاع أن يقبل فليقبل» (متى ١٢/١٩) . وهـــذه فسرهـــا أوريجن (١٨٥ ــ ٢٥٤) اللاهوتى السكندرى حرفيا مما أكسبه حب أسقف الاسكندرية آنذاك ديونيسيوس ثم جلب عليه من بعد سخط الاسقف ذاته .

« ... لا تهتموا لحيـــاتكم بمـــا تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون (متى ٢٥/٦).

« من أراد أن يخلص نفســـــه يهلكها » .
(مرقس ٣٥/٨) .

وقد استهوت هـــذه النصوص التى احتواها الانجيل نفرا من المسيحيين ، بدأوا أولا عـــلى استحياء مع مطلع القرن الثالث الميلادى ثم راحوا ينسابون الى صحراوات مصر جموعا .. حبا .. وهربا .. وخلاصا . بعض أحب هـــذه الحياة

النسكية بعيدا عن مفاسد المجتمع الرومانى التى استشرت بالذات فى تلك الآونة ، وثان هرب بعقيدته وحاول أن ينشد السلامة لها والامان هناك فى الفلوات .. وثالث طلب لنفسه نجاة ولروحه خلاصا اقتداء بالمسيح وامتثالا لدعوته . ولا شك أن الديانات الشرقية القديمة قد عرفت نوعا ما من هذه الحياة . ولكن مصر كانت أول من قدمها هدية الى عالم المسيحية . فكيف كان ذلك ؟

لقد اتخذت هذه المسألة لنفسها مسارين رئيسيين .. أحدهما الى غرب أوروبا .. والآخر الى سوريا وآسيا الصغرى .

ففى عام ٣٣٩ وقرب نهايته ، تمكن أثناسيوس الاسقف السكندرى من الهروب الى روما ، بعد أن ضيق عليه الآريوسيون الخناق فى مصر ، وبعد أن أبدى امبراطور الجزء الشرقى من الامبراطورية .. قسطنطيوس استياءه منه وعين خلفا له يدعى جريجورى الكبادوكى . وقد اصطحب أثناسيوس معه فى هذا الفرار اثنين من أخلص أصدقائه ، أحدهما يسمى آمون . وكلاهما من الرهبان المصريين . فقد كانت تربط

بين الاسقف السكندرى وجماعات الرهبان فى مصر صداقة قوية ، لعبت دورا كبيرا وهاما فى أسقفية أثناسيوس الطويلة التى بلغت قرابة ستة وأربعين عاما . وهيأت له أن يخرج فى النهاية منتصرا على خصومه الآريوسيين ، حتى أنه ليمكن القول بصورة مؤكدة .. أنه لولا رهبان مصر لما تحقق الأثناسيوس أن ينجو من مخاصميه وعلى راسهم الامبراطور نفسه .. ومن أجل هذه الثقة .. كان رفيقاه فى رحلة الهروب الى روما .. راهبين . وفى الغرب .. قضى الاسقف السكندرى وصاحباه حوالى سبع سنوات ، تنقلوا خلالها بين مدن ايطاليا وغالة (فرنسا) .

ويحدثنا أثناسيوس فى كتاباته وكذا المصادر التاريخية المعاصرة عن الاثر الكبير والانطباع الغريب الذى تركه هذان الراهبان المصريان على نفوس أهل ايطاليا والغال فى كل مدينة حلا بها . بأرديتهم البسيطة .. بمسوح الزهد والتقشف .. بمسلكهما المتواضع .. بحرصهما على أداء طقوس العقيدة .. بحديثهما والصمت .. بانصرافهما عن دنيا الناس الى عالم آخر .. كل هذا بلا شك ، دفع نفرا .. وان كان فى بادىء

الأمر يسيرا .. من أهل الغرب الى محـــاكاتهم والسير على نهجهم .

وفى الفترة ما بين عامى ٣٥٦ ، ٣٦٢ .. وفى ضيافة الرهبان وحماهم ، كتب أثناسيوس كتابه الذائع الصيت « حيـــاة القديس أنطونى » الذى يعد أبا للرهبان فى مصر .. والعالم بالتـــالى . وقـــد ولـــد أنطونى لأسرة مصرية ثرية فى بلدة « قمن العروس » ، بمحافظة بنى سويف حوالى سنة ٢٥٠ تقريبا ، فلما بلغ العشرين من عمره ، بعد وفاة والديه بستة أشهر ، آثر حياة الاعتزال، وسلك انطونى بعد ذلك حياة الاعتزال هذه حتى وفاته .. واذا كان الكتـــاب قد ضـــم بين ثناياه بعضـــا من الوقائع التاريخيـــة الصادقة ، فان الخيال قد داعب قلم الكاتب فى كثير من الاحيان.. ولا تعنينا هنـــا هـــذه التفصيلات فى شىء بقدر ما يعنينا أن نقف من الكتاب حقا على أن أنطونى وان لم يكن أول الرهبان فى مصر ، الا انه كان واضـــع أســـس هـــذا النسق من الحيـــاة .. ولا أعنى بـ « الحياة » هنا « النظـــام الديرانى » فذلك له شأن آخـــر على يد القديس باخـــوم ، الراهب المصرى ، ولكن أقصد بها حياة الرهبنة والزهد . أو الحيـــــاة النسكية .. وقد أقامها

انطونى على أســـاس « التوحد » .. ذلك أنه اعتزل دنيـــا النـــاس متوحدا ، فلما كثر أتباعه ومريدوه أنزل كل واحـــــد منهم فى صـــــومعة لا يشاركه فيها آخر .. واصبح هؤلاء المتوحدون فى الصحراء أول تجربة فى مصر للحياة الرهبانية.

على أن الشيء الهام هــــو ما جاء فى مقدمة الكتاب وجرى به قلم أثناسيوس ، عن الدوافع التى حدت به لوضع هذا العمل .. حقيقة لقد كان أثناسيوس مدينا للرهبان بالكثير .. ببقائه فى أسقفيته قرابة نصف قرن .. بانتصـــاره على خصومه من الآريوسيين .. بنجاحه فى الصراع مع الاباطرة الآريوسيين والوثنيين .. وفوق هذا وذاك .. بحياته .. ومن ثم كان لزاما عليه أن يكتب من أجلهم شـــيئا يخلد به جميل النعم .. ويدا بيضاء امتدت اليه طيلة مسعاه .. هذا من ناحيـــة .. والاخرى أن أثناسيوس كتب هـــذا المؤلف بنـــاء على رغبـــة « الاخـــوة فى الارجاء الاجنبية » . كمـــا جاء فى أول سطر منه .. ثم يقول :

« ... ونظرا لانكم قد طلبتم منى أن أقدم لكم وصفا عن طريقة حياة أنطونى المباركة .. ولانكم تريدون أن تعرفوا كيف بدأ نسكه .. وأى انسان

كان .. وكيف انتهت به الحيـــاة .. وعن مدى الصدق فيما سمعتموه من سيرته .. لكى يكون أنموذجا يحتذى .. وبه تقتدون .. من ثم سرنى جدا أن أحقق رغبتكم ... وأنا أعرف أنكم عندما تســـمعون فانكم ، وقد امتلأتم بالرجل اعجابا ، سوف تحاولون الاقتداء بمسلكه ، وسوف ترون فى حياته مثالا كافيا للرهبانية والزهد » .

ثم يخبرنا أثناسيوس انه اضطر الى التعجيل بتدوين سيرة أنطونى « نظرا لان موسم الابحار قد قرب على الانتهاء ، ممـــا يستدعى أن أبعث اليكم بمن يحمل هذه الرسالة على الفور » .

ولسنا ندرى أى « أرجاء اجنبية » تلك التى يعنيها أثناسيوس .. ولا من هم هؤلاء «الاخوة» الذين يقصـــدهم .. ولـــكن استقراء الاحداث التاريخية ووقائعها آنذاك يبين لنا انه لا يبعد أن تكون ايطاليا أو غالة هى التى يرمى اليها الاسقف السكندرى بحديثه .. ذلك أنه فى خلال هـــــذه الســـنوات (٣٥٦ ــ ٣٦٢) كانت الآريوســـية تسيطر تماما على الامبراطورية بعامة .. وبوجه خاص النصف الشرقى منها .. وأتباعها أعـــداء اثناسيوس الألداء ، أما القسم الغربى فكان دائم

التمرد على هذه العقيدة . هذا بالاضافة الى أن الامبــراطور قســطنطيوس كان يطــارد بجــد أثناسيوس ويتعقبه حتى الى داخل مملكة أكسوم، ولم يكن أحـــد من أساقفة القسم الشرقى من الامبــراطورية آنذاك يؤيد أثناســيوس . فاذا اســتعدنا ثانيــة ذلك الاثر الكبــير الذى تركه الراهبان المصريان فى الغرب .. علمنا بما لا يدع مجالا للشك أن أمر الرهبنة لم يعد خافيــا على « الاخوة » فى الغرب .

ويتفق المؤرخون جميعا ، وعلى راســهم نيندر وكيـــد ولوت وبينتر وفازيلييف وهاردى وستانلى .. على أن « حياة القديس أنطونى » كان له أكبر الاثر فى وقوف العالم المسيحى جميعه على أسرار هــذه الحيــاة النسكية ، وانتشار الرهبنة من مصر الى خارجها .. وتقول هيلين وادل أنه لم يحظ كتاب بمثل ما حظيت به هــذه الترجمة من الانتشار والاهتمام فى مصر وغرب آسيا وأوروبا بعامة . أما المؤرخ روبرتسون فقد كتب يقول : « ان هــذه السيرة قد لعبت دورا هاما فى تطور الرهبانية فى الكنيسة .. وفى روما والغرب بأسره بعثت فى النفوس اللهفة الى الحياة النسكية .. وهى التى دفعت القديس أوغسطين،

كما سجل ذلك فى اعترافاته ، الى أن يطلق هذا العالم وأن يهب نفسه تماما لله » .

وعلى هذا النحو ندرك الى أى حد كانت مصر رائدة عالم المسيحية فى الشرق والغرب على السـواء فى ميدان الرهبنة . والحقيقة أن قيمة هذا الاثر لا تنحصر فقط فى سبق مصر واهدائها هذا النسق من الحيـاة الى العالم المسيحى .. بل تتضح بصورة جلية فى الدور الكبير الذى لعبه الرهبان ، سواء فى مصر أو الشرق أو أوروبا ، طوال العصور الوسـطى ، وأثرهم البارز على تاريخ الكنيسـة على امتـداد هـذه الاعصر ، وما قدموه لأجل الفكر الانسانى نماء أو جمودا !!

وكانت سلافة هذا الكتاب ، أن أقدم القديس جيروم على محاكاته .. واذا كان أثناسيوس قد كتب عن أبى الرهبانية فى مصر والعـالم .. فليكتب جيروم عن أول الرهبان .

وليس غريبـا أن يكون الراهب الاول هـذا مصريا صـميما .. وقد خلده جيروم فى كتـابه « حيـاة القديس بولس .. أول الرهبان » .. وذكر دليلا على صدق حديثه أن اثنين من مريدى انطونى ومن أشد المقربين اليـه ، هما أماطاس

ومقار .. اخبرا أن بولس الطيبى كان رائد هذه الحركة الرهبانية .. ويخبرنا جيروم أن بولس اتخذ سبيله الى الصحراء هربا أثناء فترة الاضطهاد على عهد الامبراطورين دكيوس وفاليريان (٢٤٩ - ٢٦٠) .. ويقص علينا الكثير مما عرض له على امتداد حياته الطويلة التى امتدت حتى العام الثالث عشر بعد المائة ، ولعب الخيال بكثير من وقائعها .. ولا يعنينا هنا من أمرها شيئا بقدر الاثر الكبير الذى أحدثته ترجمة جيروم لبولس فى ميدان الرهبنة .. وحتى على نفسه هو اذ سلك هذه الحياة .. ووضع كتابا آخر فى نهاية القرن الرابع الميلادى .. حوالى سنة ٣٩٠ تقريبا .. عن القديس هيلاريون .. راهب غزة الشهير .

ومما كتبه عنه جيروم نعرف أن هيلاريون جاء الى الاسكندرية لدراسة النحو على أساتذة مدرسة الاسكندرية الذائعة الصيت .. وترامت الى سمعه شهرة الراهب أنطونى « الذى كان على لسان كل انسان فى مصر » — حسب تعبير جيروم نفسه — وتاقت نفسه الى رؤيته .. فولى وجهه شطر البيد يبتغى أنطونى .. وما أن وقعت عيناه على أبى الرهبان .. حتى هجر دنيا

الناس والحياة .. وامتلأت نفسه حبا لأنطونى ودنياه .. فلازمه طيلة شهرين .. « درس فيهما طرائق حياته وسلوكه .. ومتع ناظريه بالخشوع فى صلواته .. وتواضعه .. ورقة حديثه مع الآخرين .. ورأى الجموع تقدم على أنطونى من كل حدب وصوب .. تقتدى به وتتبرك » . فلما رضيت نفسه عاد فى صحبة عدد من الرهبان الى موطنه الاصلى فى فلسطين ، فتنازل عن جزء من أملاكه لاخوته .. ومنح الباقى ذوى المسغبة والمتربة « وأيقن أنه من الافضل له أن يبدأ كما بدأ أنطونى » .

وكان هذا هو المسار الثانى الذى انتقلت به الرهبنة من مصر الى فلسطين وسوريا .. ومن بعد الى آسيا الصغرى .. وساعد على ذلك أيضا أن باسيليوس الكبير أسقف قيسارية كبادوكيا (٣٢٩ — ٣٧٩) كان صديقا خلوصا لأثناسيوس الاسقف السكندرى .. دارت بينهما المراسلات فترة طويلة فى السبعينيات الاولى من القرن الرابع .. ثم ارتفعت بعد ذلك الى مستوى السفارة .. وكان رسل أثناسيوس الى باسيليوس من بين أصدقائه الرهبان . واذا علمنا أن باسيليوس يعد واضع أسس الرهبنة

الديرانية فى آسيا الصغرى أدركنا على الفور الاثر الكبير الذى تركته مصر على الرهبنة الباسيللية .

ولو عدنا ثانية الى غرب أوروبا لوجدنا كاتبا آخر هو سولبكيوس سفروس (٣٦٣ — ٤٢٠) من غالة ، قد حاكى أثناسيوس أيضا فى ترجمته لحياة أنطونى .. فوضع كتابا عن القديس مارتن اسقف تور .. رفعه المؤرخون به الى مصاف اشهر كتاب سير القديسين فى القرن الخامس الميلادى .. وقد أظهر سفروس فى كتابه هذا حبا دافقا لمارتن وورعه وزهده وتقواه ، ومن ثم لم يقف به الامر عند حد الترجمة له .. بل سلك نفس السبيل فى عام ٣٩٢ ، وساعده على ذلك الموت المبكر لزوجته التى كان يحمل لها كل تقدير واعزاز .. وراح يستحث أخته فى رسائل عديدة على حب الله واحتقار العالم .

واذا كانت مصر قد قدمت للعالم المسيحى نسق الحياة الرهبانية .. فقد حملت اليه أيضا نظامها الديرانى . لقد كان بولس طيبة أول الرهبان .. وأنطونى هو الرائد الذى وضع الاسس العملية للرهبان المتوحدين .. وحازت مصر قصب السبق أيضا فى تطوير هذه الحياة

الى الشكل الذى لا زال عالم المسيحية يعرفه حتى اليوم .. أعنى الاديرة .

ذلك أن واحدا من بنيها هو باخوم .. ترك الخدمة فى الجيش الرومانى ، واعتزل العالم راهبا .. ولكنه كان يختلف عن سلفيه ومعاصريه بولس وأنطونى .. فى أنه لم يرض بحياة التوحد هذه ، فعمد فى سنة ٣١٥ على وجه التقريب الى تأسيس دير لجماعة الرهبان الذين التفوا حوله وذلك بالقرب من دندرة .. وكان هذا النوع الجماعى من حياة الزهد جديدا على عالم المسيحية .. وهكذا عرفت مصر الرهبنة بنوعيها التوحدى .. والديرانى .

وفى حديث طويل وتفصيل دقيق .. يطلعنا مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس .. سوزومين على نظام الاديرة الباخومية ، بعد أن كثر أتباع باخوم وانتشرت الاديرة التى تتبع نظامه فى الحياة الرهبانية .. وليس لنا هنا أن نخوض فيما تكفل سوزومين وغيره بالخوض فيه .. ولكن الذى يعنينا أن العالم المسيحى فى الشرق والغرب قد وقف على هذا التنظيم الديرانى لباخوم ، ونقله وحاول تطبيقه .. كل على النحو الذى يتلاءم وطبيعة

المكان الذى يحيا فيه .. وتولى نفر ممن آثروا هذه الحياة .. ووفدوا على مصر من اوروبا وآسيا الصغرى وفلسطين .. نقل هذه الانظمة الى مواطنهم ومواطنيهم .

على أن أشهر من قام بهذا الدور هو باللاديوس .. أسقف هلينوبوليس فى بيثينيا بآسيا الصغرى .. وقد جاء الى مصر مرتين .. أولاهما فى عام ٣٨٨ ، وساح فى وادى النطرون وتنقل بين أديرة مصر العليا .. وكانت الثانية رغم أنفه ، اذ جاءها منفيا .. وقضى فيها ست سنوات (٤٠٦ ــ ٤١٢) .. وقف خلالها على تنظيمات الديرانية المصرية ، واختلف الى كثير من آبائها .. وعاد الى بلاده يحدث بذلك كله ويدعو الى اتباع هذا الطريق .. ثم خلف لنا مشاهداته كلها فى كتاب أسماه « الفردوس » معتبرا هذه القفار التى يقيم فيها المتوحدون وساكنو الاديار جنانا تستضىء بنور ايمانهم !!

وعن « الفردوس » نهل سوزومين ــ المؤرخ الكنسى ــ الكثير مما قدمه عن الاديرة الباخومية ونظامها . وعن هذه أيضا كتب القديس جيروم رسالة ، أطلع فيها عالم الغرب على النظام

الباخومى الديرانى .. وحياة الرهبان .. وطبيعة العلاقات بينهم .. وتقسيم العمل .. والانعزال التعبدى .. والصلوات الجماعية . والمعروف أن القديس جيروم قد زار مصر مع نهاية القرن الرابع ، وتنقل بين أديرتها .. وأبدى اعجابه الفائق بهذه النظم الرهبانية والديرانية ، واتضح ذلك جليا فيما كتبه عن بولس أول الرهبان .. وباخوم صاحب أول الاديار .

والمتتبع للحركة الديرانية فى تاريخ أوروبا العصور الوسطى بصفة خاصة ، يدرك بوضوح ذلك الاثر الكبير الذى تركته مصر على المسيحية ، ويتمثل ذلك بصورة واضحة فى الاديرة البندكتية، التى تنسب الى القديس بندكت .. الايطالى الاصل .. الذى أقام ديره فى مونت كاسينو بين نابلى وروما . وحاز النظام البندكتى فى غرب أوروبا شهرة فائقة في القرنين السادس والسابع، حتى اذا كان القرن العاشر ، اجتذب دير كلونى الاضواء من سابقه ، وحلقت سمعته بفضل دوره الكبير فى اصلاح البابوية من المفاسد التى ترددت فيها آنذاك .. كما أنه لعب دورا خطيرا ، سواء بصورة مباشرة أو غيرها ، فى الحروب الصليبية

فى الشرق .. وحركة الاسترداد الاسبانية فى الغرب .

واذا كانت مصر قد أهدت الى المسيحية حياة الرهبنة ونظم الديرانية .. فان فارقا جوهريا نجده قائما بين الاديرة فيمصر وتلك التي خارجها، فعلى حين أقام الرهبان المصريون أديارهم فى جوف الصحراوات بعيدا عن الناس ، منعزلين .. رفض باسيليوس القيسارى الكبادوكى .. ومارتن التورى .. وبندكت وكاسيودور وجريجورى الاول .. وآباء الديرانية الايرلندية وآباء كلونى .. الانغلاق على أنفسهم بعيدا فى الفلوات أو الغابات كما فعل رهبان مصر .. بل أقاموا أديرتهم قريبا من المدن .. أو على أطرافها أو على الطرق المؤدية اليها .. وجعلوا من الدير مستقر عبادة .. وفى الوقت ذاته مؤسسة دينية تقدم الخدمات الاجتماعية .. بل والاقتصادية الى جوار رسالتها الدينية الى أهالى المنطقة التى يوجد فيها الدير . أما فى مصر فقد أخذت الاديرة شكلا مغايرا تماما .. فانصرف ساكنوها الى مباشرة أمور العقيدة وطقوسها .. واعتمدوا فى كثير من الاحيان على ما تمدهم به المناطق المجاورة . وفى الوقت الذى ظلت فيه الاديرة

الاخرى على اتصال بالعالم الخارجى من حولها والتطور الفكرى والرقى الانســـانى .. لم يكن للرهبان المصريين من علاقة خارج أسوار هـــذه الاديار الا بالكنيسة .. وتوطدت هذه العلاقات بصورة جدية فيما بين القرنين الرابع والسابع ، ووضع أساقفة كنيسة الاسكندرية أنفسهم على راس هذه الحركة الرهبانية .. وأضحى الرهبان يشكلون قوة ضخمة أو « جيشا » على حد تعبير أحد المؤرخين ، استخدمه الاساقفة السكندريون كثـــيرا فى مناواة سلطان الاباطرة البيزنطيين . وفيما عدا ذلك فقد كان نصيب الرهبان المصريين من الثقافة والمعرفة ، الا النزر اليســـير منهم .. قليـــلا لا يقاس مطلقا بما كان عليـــه الاخوة فى الاديرة الخارجية .

ولعل السبب الرئيسى الذى أضفى على حركة الرهبنة المصرية هـــذه الصفة التى لازمتها فترة طويلة من الزمان .. هو عقدة الخوف الدائم من الاضطهادات التى ذاقها المسيحيون فى مصر على يد اباطرة الرومان الوثنيين .. وحتى لمـــا غدت الدولة مسيحية بعد ذلك فى نهاية القرن الرابع الميلادى ، على عهد الامبراطور ثيودوسيوس ، أصيبت مصر بخيبة أمل بالغة بعد ذلك عنـــدما

خالفت فى المذهب العقيدى أباطرة بيزنطة .. فحل بالمسيحيين فيها الاضطهاد ثانية .. وان كان هذه المرة مسيحيا . وظلت على هذه الحال قرابة القرون الثلاثة حتى جاء المسلمون الى مصر يحملون اليها التسامح وحرية العقيدة .

أما الغرب الاوروبى فلم يلق من الاضطهادات الوثنية أو المسيحية شيئا يذكر .. فقد كان المسيحيون فيه يشكلون أقلية ضئيلة ، هذا الى أن مقام الاباطرة الوثنيين مع نهاية القرن الثالث وهى الفترة التى اشتدت فيها حركة الاضطهاد كان فى الشرق .. مهد المسيحية وموطن الكثرة الغالبة من المسيحيين .. وفى العهد المسيحى حرص أباطرة القسم الغربى من الامبراطورية على أن يكونوا على وفاق مع العقيدة التى تؤمن بها رعيتهم . ومن هنا كانت الاديرة فى الغرب مؤسسات دينية اجتماعية ، على حين كانت فى مصر قلاعا يحتمى بها الهاربون بعقيدتهم الفارون بايمانهم !

غير أن الالتجاء الى الاديرة أضحى من بعد مسألة عامة .. حتى أن الدولة رأت فى هذه الاديار خطرا يهدد أمنها وسلامتها .. خاصة

فى الاوقات العصيبة التى تعرضت فيها الامبراطورية لأخطار خارجية تمثلت فى هجمات القبائل الجرمانية والصقلبية .. وجدت الدولة فى البحث عن القادرين على حمل السلاح دفاعا عن حدودها .. وجد هؤلاء فى الهروب الى الاديرة والاحتماء بها .. مما دفع امبراطورا مثل موريس (٥٨٢ — ٦٠٢) الى أن يصدر أوامره بفرض قيود مشددة على الاديرة حتى لا تسمح لمثل هؤلاء باللجوء اليها هروبا من الخدمة العسكرية ، مما أدى الى حدوث أزمة طاحنة بينه وبين البابا جريجورى الاول (٥٩٠ — ٦٠٤) .

بل ان بعضا من الاساقفة ورجالات الكنيسة أنفسهم استنكروا هذا النوع من الحياة ،وعدوها ضربا من حب الذات .. وانعزالا عن المجتمع .. وفرارا من حل مشاكله والمشاركة فى واجباته.. وامتناعا عن تقديم العون لأفراده على اختلاف عوزهم وحاجاتهم . وكان من أبرز الامثلة على هذا الاحتجاج ، ذلك المجمع الذى عقده أساقفة آسيا الصغرى فى مدينة جانجرا حوالى عام ٣٦٢ .. وجاء فى ديباجة الرسالة التى حملت قوانين المجمع ، الاسباب التى دفعت هذا النفر من رجال الاكليروس الى الاجتماع .. وكان

من بينها السخط التام على كل أولاء « الذين يمقتون الزواج ويفضلون حياة التبتل .. مدعين بأن كل من طلب لنفسه زوجة .. أو كل من طلبت لنفسها زوجا .. لن يدخل .. أو تدخل .. ملكوت السماوات » ويعلن الجميع استنكارهم الكامل لما أقدم عليه الرجال من ترك زوجاتهم ، أو ما أقدم عليه أولاء من هجرن أزواجهن .. وقص شعورهن .. « من أجل هذا فقد عقد مجمع جانجرا لادانة هؤلاء جميعا وفعالهم وطردهم من رحمة الكنيسة ما لم يثوبوا الى رشدهم ... واذا لم يمتثل الجميع لقرارات هذا المجمع المقدس فسوف تحل به لعنة الكنيسة شأن الهراطقة .. ويمسى محروما طريدا » .

وجاء نص القانون الاول للمجمع كما يلى :

« كل من يزدرى الزواج الشرعى .. فليكن أناثيما » .

أما القانون الثانى فكان نصه :

« كل من حرم أكل اللحوم .. فيما عدا المنخنقة وما ذبح على النصب .. فليكن أناثيما» .

ومن هذا يتضح لنا مدى خوف الكنيسة ، حتى فى الفترة الباكرة من عمر الحركة الرهبانية ،

من هـــذا النسق الجديد الذى تدافع اليـــه المسيحيون بعامة ، ووجدوا فيها بعدا عن فساد المجتمع الذى يعيشـون فيـــه ، دون أن يحاولوا المساهمة فى انقاذ المجتمع مما يعانيه .. ولعل الافكار التى اذاعتها الكنيســـة الاولى عن قرب مجىء ملكوت السماوات .. واعتبار المسيحيين غرباء فى هذه الارض .. وأنهم مواطنون فى مملكة الله الآتية .. كل هـــذا ســاعد دون ريب على انتشار الرهبانية فى المسيحية .

على أنه مما هـــو جدير بالذكر أن الاديرة قد قامت بدور كبير فى حفظ التراث الانسانى وبقائه على مر الاجيال .. اذ عمد رهبان الاديرة بعامة الى نسخ المؤلفات النادرة او اقتنائها ..والعناية بالصور المقدسة أو الايقونات والحفاظ عليها .. حتى أن الرهبان كانوا اشد الناس عداوة لحركة محاربة تقديس الصـــور التى أشعلها اباطرة الاسرة الايســـورية البيزنطيـــة فى القرن الثامن الميلادى أو ما عرف بالحركة اللاايقونية . وكان لهذا الدور الذى قام به الرهبان أثره الواضح فى انقاذ ذخائر الفـــكر الانسانى من الضياع نتيجة للتدمير الذى لحق بالامبراطورية الرومانية على

يد الشعوب الجرمانية والصقلبية .. او الغزوات المتاخرة التى حملت الخراب فى زحفها .

وبعد ...

ومهما يكن من أمر .. فقد كانت مصر لعالم المسيحية أنموذجا يحتذى .. قدمت اليه الرهبانية حياة .. والديرانية نظاما .. وحملت اليه النسكية هدية .

قس الاســكندرية .. الذى لعنته الكنيسة

« لو أن الثوب الذى ترتديه
انشق أمام ناظرى الى نصفين
لما استطعت عنــدها أن أقول
أنهما كانا من جوهر واحد » .

يوساب النيقوميدى

ذات يوم جلس اســكندر أسقف الاسـكندرية (٣١٣ ــ ٣٢٨) وقد احاط به رجال اكليروسه يتداولون فيما بينهم أمر العقيــدة .. وشـــئون الكنيســـة .. ويذكرون تلك الايام الخوالى التى لقيت فيها الكنيســـة العنت كله على يد اباطرة الوثنية .. ويستغفرون للذين تابوا بعد أن ضل منهم الفؤاد زمن الاضطهاد وغوى .. ويدعون بالرحمة لبطرس سلف اسكندر الاسبق .. وآخر شهداء الكنيسة المصرية .

وكان بين الحضور قس انصرف بنفسه وفكره عن هؤلاء جميعا وحديثهم .. الى قضية ملكت

عليه كل عقله وأحاسيسه .. وشغلته عما حوله وعمن يحيطون به .. تلكم هى مسألة الايمان .. لقــد كان الرجل متعاطفا تمــاما مع ما فاه به أبو الكنيسة الافريقية ترتوليان (١٦٠ ـــ ٢٢٢) « انها أمور لا يصدقها العقل السليم .. لقد مات ابن الله .. ذلك شيء معقول لا لشيء الا لانه ممـــا لا يقبله العقل . وقـــد دفن ثم قام من بين الاموات .. ذلك أمر محقق لانه مستحيل » . ولا شك أيضـــــا أن الرجل كان لابد أن يبـــدى امتعاضـــة لو قـــدر له أن يعيش ليقرأ تعليقات القديس أوغسطين على انجيل يوحنـــــا .. وكذا عظاته وخاصة قوله : « ... ان العقل يسبق الايمان ، والايمان يسبق العقـــــل ، وانى أومن لكى أفهم » . فقد كان القس يريد أن يفهم أولا حتى يقيم ايمانه من بعد على أساس من العقل والمنطق .. ومن هنا كان القس منصرفا بكليته عمن حوله .. سابحا فى زورق من صنع الفـــكر الانسانى واتساقه .

وتطرق الحديث بين اسكندر والرفاق الى أدق أسرار العقيـــدة .. وفجأ الاســـقف رجاله .. ما الايمان ؟.. وما قولكم فى الكلمة .. المسيح ؟! وأفاق القس من نشوة الفكر .. وأحس كأن

الاسقف يعنيه .. فقد كان يدرك تماما أن الجميع يعلمون عـــدم رضائه عن التسليم المطلق بداهة بأسرار العقيدة المسيحية .. وما بشر به بولس وما تضمنته فاتحة انجيل يوحنا .. ووجم الجميع وشملهم الصمت .. كأن على رءوســهم الطير ..
وقال اسكندر : أنا أخبركم .

« نؤمن كما تكرز الكنيسة الرسولية .. بالآب الوحيد غير المـــولود .. الواجب الوجـــود .. لا يتغير ولا يزول .. هـــو هو غاية الكمال .. لا يتكثر عليه نقصان أو زيادة .. معطى الشريعة والانبياء والاناجيل . رب الآباء والرســـل وكل القديسين » .

« ونؤمن برب واحد .. يسوع المسيح .. ابن الله .. المولود الوحيـــد . ليس مولودا من العدم بل من الآب على نحو لا يدركه العقل .. فوق التعبير .. ووجـــوده غـــير مدرك عنـــد الكائنات المائتة » .

ويتململ القس فى مقعـــده .. وترتســـم على وجهه أمارات الضيق .. ويستعيد قول ترتوليان زعيم الكنيسة الافريقية .. ويمضى اسكندر فى حديثه :

« الآب غــير مدرك وطبيعة الخلائق العاقلة لا تقوى على فهم هذه الولادة الالهيــة من الآب .. ولا تزال تتردد فى آذاننا أصداء قول المخلص : ليس أحد يعرف الابن الا الآب .. ولا أحد يعرف الآب الا الابن » .. « الابن لايتغــير .. والآب . الابن لا ينقص عن الآب شيئا سوى أنه ليس غير مولود ..هو الابن الكامل وصورة الآب التامة » .

ويشتد الغضب بالرجل .. ويكاد يفلت منــه زمام نفســه .. ولكن سمة المفكر سرعان ماتطوى سورة الغضب .. ويتابع اسكندر حديثه قائلا :

« الله على الدوام كان .. وكذا الابن كان . مثلما يكون الآب .. الابن يكون أزليــا .. الآب لا يسبق الابن فى الفكر أو لبرهة . ازلى الاله .. أزلى الابن .. الذى من غير المولود .. مولــود . الابن من الله ... » .

وسكت اسكندر .. وتفرس وجوه الاكليروس من حوله ليرى انطباعات حديثــه ذاك .. وأوما الكل مصدقا لما قاله أسقفهم .. الا ذلك القس فقــد تقدم من اســكندر وراح يخاطبه فى هدوء الغاضب ونبرة المفكر : دعنى أحدثك ســـيدى الاســـقف بمنطق الفــكر قبــل الوجــدان .. وبأسلوب العقل دون العاطفة .

« لا ريب أنك معى فى أن المنطق يحتم وجود الآب قبل الابن .. وعليه يكون هناك زمان الآب ليس فيه آبا .. ومن ثم فليس هناك كائنان غير مولودين .. ولايعقل ان ينقسم الواحد الى اثنين ولا يمكن أن يتصور عقلى أن الواحد ، فى صورة بشرية ، قد تجسد .. ولكنى أؤكد أن الغير مولود واحد .. لانه منذ البدء غير مولود . واذا كانت حقيقة تسمية الابن المولود تدعو البعض الى الاعتقاد بأنه من نفس جوهر الآب .. فانه يمكن الرد على ذلك بأنه ليس وحده الذى تحدث عنه الكتاب المقدس بأنه المولود .. بل عن آخرين مخالفين له فى الطبيعة » .

وتمايلت الرءوس .. وعلا الهمس .. واستمر اسكندر فى سكونه .. ومضى القس فى حديثه .. « لا تتهامسوا .. ألم تقرءوا فى سفر اشعياء » « ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا على » . وأيضا ما جاء فى سفر أيوب « من ولد مآجل الطل » . واظنكم تدركون جيدا أن قطرات الندى هنا ليست شريكة لله فى طبيعته .. ولكن المعنى بالحرى أن كافة الاشياء قد تمت وفق ارادته » .

وتعالت أصوات الاحتجاج .. وأشار اسكندر الى الجمع أن يصمت ويعقل .. والى القس

أن يزيد وجهة نظره وضوحا .. وأجاب الرجل..
« ليست وجهة نظر .. ولكنه حديث المنطق ..
الآب هـو الاله الحق فى مقابل الابن الذى ليس
الها حقا ... انهما متعارضـان بالضرورة عـلى
أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق ..
ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين .. الهان
لا متناهيان . الابن ليس غير مولود .. وليس
جزءا من غير المولود .. ولا يسـتمد كيانه من
مادة .. وانما بالارادة والقصـد وجد قبل كل
العالمين .. وأنه قبل أن ولد أو خلق .. لم يكن
لانه كان غير مولود » .

ودون وعى أو تدبر .. أراد الاكليروس لـو
أمسك بهذا الرفيق وقذف به خارج البيعة . غير
أن اسكندر كان قد ألزم نفسه بالصبر ، يستمع
من خلاله الى قول قسيسه ، والذى مضى يقول:
« الله واحـد .. فى البدء كان .. ثم خلق
اللوجوس .. الحكمة .. حتى يمكن بها أن يخلق
العالم .. هناك اذن حكمتان .. حكمة خاصـة
بالله .. وأخرى يشـارك فيها الابن .. كما أن
فى الله لوجوسا آخر غير الابن .. وقد سـمى
الابن تكريما له باللوجوس .. الكلمـة . ولله
قوى طبيعية ليس كمثلها شىء .. سرمدية ..

اما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله ، وانما هو احدى هــذه القوى .. والمسيح فى علاقته بالكائنات خالق .. أما علاقته بالآب فهو مخلوق وآلة للخلق وأداة .. الابن قمة الخلائق .. ثابت غير متغير .. ولكنه ليس ثباتا فى ماهيته ذاته .. بل بارادة الله .. الابن لا يعرف الآب تمـاما .. ولكنها معرفة جزئية بالنسبة لقواه التى وضعها فيه الله . ان الابن لا يعرف حتى طبيعته هو » .

وسكت القس ، أو ربما أمر أن يصمت .. ذلك أن اسكندر رأى أنه قد التزم الصبر أكثر مما يجب ، وأنه تساهل مع قسيسه الى الحد الذى اجترأ فيه على ايمان آباء الكنيسة الاول وخالف رأيهم . وكان اسكندر يعلم أن لدى الرجل قـــوة اقناع يستطيع بها أن يجذب اليه عددا كبيرا ممن يعملون الفكر فى أمر العقيدة .. هــؤلاء تمتلىء بهم الاســـكندرية بفلسفتها الاغريقيــة وثقافتها الهللنستية .

كان اســـــكندر مقيما على ايمان الآباء الذى ارتضته الكنيسة الكاثوليكية لا يبغى عنه حولا .. وتعلقت به جموع المسيحيين فى الامبراطورية على امتداد القرون الثلاثة تقريبا .. وذاقت فى سبيله اقسى الـــوان التعذيب والايلام .. يرتكز عـــلى

الميلاد المعجز للمسيح .. ومعجزاته طيلة حياته ، ولما كان المسيح قد جاء يحيى موات الروح فى « خراف بنى اسرائيل الضالة » بعد أن وهبوا أنفسهم تماما الى عالم المادة .. ويبشر الناس بالسلوى والعزاء بديلا عن شقاء يعانون منه الويلات . فقد لقيت أفكار آباء الكنيسة الاول ، قبولا لدى هذه الجموع ممثلة فى فكرة الخلاص.. دون أن يحاول هؤلاء ارهاق عقولهم فى البحث وراء أسرار هذه الدعامات وغوامضها .. بل ان غموضها كان باعثا هاما على شدة الاقبال عليها من أهل الشرق بوجه خاص .. وقد لمسوا فيها شبها بعيدا بالديانات التى سادت بينهم قديما بأسرارها وطقوسها .. وخاصة ايزيس المصرية .. ومثراس الفارسى .. وسيبيلى الام الفريجية العظيمة .. والثالوث المقدس فى مصر الفرعونية .. وثالوث الاغريق فى مصر البطلمية وأشباهه فى الديانات الشرقية القديمة .

غير أن هذه العبادات كانت قد فقدت سحرها فى نفوس عبادها بعد الكوارث التى حلت بالامبراطورية فى القرن الثالث الميلادى .. ووقفت هذه الارباب عاجزة عن أن تقدم للمجتمع شيئا جديدا .. وهنا جذبت المسيحية اليها الافئدة بما احتوته من أسرار وطقوس ليست غريبة على

الاذهان .. فى الوقت الذى تفردت فيه بالعزاء الروحى الكامن فى ملكوت السماوات الآتى .. لهؤلاء الحيارى فى دروب العقيدة .. ووسط الحالة النفسية السيئة التى كان يعانى منها المجتمع الرومانى آنذاك .. تمسك أتباع هذه العقيدة الجديدة بها بعد أن رأوا فيها طريقا سهلا الى الخلاص .. لا يطلب اليهم أكثر من الاتحاد بالمخلص والفناء فيه .

ولكن .. اذا كانت الجموع قد وجدت ، بعد لأى ، فى المسيحية سلواها .. فان الطبقة المثقفة رفضت فى بادىء الامر الدخول فى المسيحية لانها لم تجد فيها بادىء ذى بدء ما يشبع فكرها .. ومن ثم انصرفت الى الايمان بالفلسفات السائدة أنذاك كالرواقية .. وما تسمو به من فضيلة .. والافلاطونية المحدثة وما تحمله من مبادىء تطهرية فى ظل نزعة صوفية .. والاعتراف بجميع الارباب .

وكأن المسيح كان يعلم ما سوف تحدثه هذه الفلسفات والعقائد من تأثير على المسيحية .. ومن ثم أوعز الى تلامذته .. « الى طريق أمم لا تمضوا » . غير أنهم انطلقوا مسلحين بما سمعوه .. « اذهبوا وتلمذوا جميع الامم

وعمدوهم ... » . وكان طبيعيا اذن .. وقد تركت المسيحية نطاق اليهودية ومضت الى طريق الامم أن تمتزج بالثقافات والعقائد والفلسفات السائدة فى هذه الامم وخاصة العالم الهللنستى وأن تأخذ عن هذه الفكر .. وأن تعطيها . وأن تهجر كارهة أسلوب التبشير عن طريق معجزات المسيح .. مما يستهوى العامة ، الى دعوة المفكرين والخاصة المثقفة .. وأن تستخدم أسلوبهم ومنهجهم العقلانى المنطقى حتى يمكن بعد ذلك أن تغزو قلوبهم .. بمعنى آخر .. كان لابد أن تتفلسف المسيحية .. وهذا لا يعنى قيام فلسفة مسيحية متميزة .. فذلك شيء لم يتقرر تماما الا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر .. وبصورة أكثر وضوحا فى القرن الذى تلا على يد القديس توماس الاكوينى .

وكان رد الفعل الطبيعى لهذا الاختلاط العقيدى أن ينشأ من بين المسيحيين انفسهم من يعمل الفكر فى أمر العقيدة .. فى محاولة لتقديمها على أسس منطقية الى الفلاسفة الوثنيين ورجال الفكر فيهم .. وكل من هؤلاء جميعا كان يوقن فى نفسه تماما أنه مسيحى مخلص لعقيدته الاخلاص كله ، وهو من اجلها يعمل فكره حتى يرقى بها الى

مدارك أولئك الذين يأبون الايمان بها .. ولكن الكنيسة وجدت فى هؤلاء جميعا خطرا يهدد كيانها .. ويهز العقيدة من أساسها .. ويثير القلق والاضطراب فى نفوس هذه الكثرة الغالبة من البسطاء .. المحدودى الثقافة .. الذين اعتنقوا هذا الدين الجديد .. فى الوقت الذى لم يدر فيه بخلد أحد من أولاء النفر شىء من هذا القبيل .. من اجل هذا حرمتهم الكنيسة شركة التناول .. ولعنتهم .. ونعتتهم جميعا هراطقة وحذرت الناس من السير وراء فكرهم .

وقد شهدت المسيحية هذه المحاولات منذ القرن الاول لها .. ولكن اكليروس الفكر هذا ظهر بشكل يلفت النظر فى القرن الثالث .. وكان من أشهر رجالات المسيحية الذين جرت عليهم لعنة الكنيسة آنذاك .. بولس السميسطائى الذى نادى بأن المسيح مجرد انسان وصل الى درجة الألوهية بكماله الخلقى .. وانكر أقنومى الابن والروح القدس معتبرا اياهما مجرد قوتين فى الله كقوتى العقل والتفكير فى الانسان .

غير أن هذه الاتجاهات العقيدية المتضاربة التى ظهرت فى المسيحية ، بلغت فى القرون الثلاثة الاولى لها حدا دفع أحد المؤرخين المحدثين الى

القول بأنها بلغت مائة فرقة وفرقة !!.. وسخر منهـا مؤرخ الكنيسـة فى القرن الخـامس .. سقراط حين قال : « اذا ساد السلام فى الكنيسة وتوقفت هذه الصراعات .. فلن يجد المؤرخون شيئا يكتبون عنه .. وعندئذ تنقرض هـذه الطائفة من كتاب المآسى » !!

ورغم هذا التمزق فقد تزعم هـذه التيارات المتصارعة .. مدرستان فى الاسكندرية وانطاكية قامتا لتفسـير الكتاب المقدس وان اختلف منهج كل منهما عن الاخرى .. فاختـارت مدرسـة اللاهوت السكندرية الطريق المجازى .. السلفى الى حد . وذاعت شهرتها فى القرن الثالث على عهد استاذها أوريجن السكندرى .. بينما فضلت المدرسة الانطاكية اعتماد العقل فى تفسير الكتاب المقدس ومناقشـة أمور العقيدة .. وعلا أفقها ببراعة رائدها لوسيان الانطاكى .

وكان اسـكندر .. أسقف الاسـكندرية .. مخلصا للاهوت أوريجن .. بينمـا كان ذلك القس السكندرى ، واحـدا من أبناء المدرسـة الانطاكية .. وتلميذا لأسـتاذها لوسيان .. من هنا كانت هوة الخلاف واسعة بين الرجلين .. ولم يكن هناك من سبيل الى لقائهما .. أحدهما

يحمل الايمـــان التقليدى للكنيســـة الاولى .. والآخر يمثل التيار العقلانى الجديد فى المسيحية.

ذلكم الرجل هو آريوس .. قس الاسكندرية الشهير .

تسربت أنباء هذا اللقاء وما دار فيـــه خارج جدران الكنيسة .. وتلقفها الناس وراحت القلة المثقفـــة تتدارس آراء آريوس .. وانقســـمت الرعية المسيحية فى الاسكندرية بين مؤيد للقس وموال للأسقف .. ويخبرنا سوزومين .. مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس .. على استحياء أن كل من تابع آريوس على آرائه كانوا من المثقفين ، فقـــد استطاع آريوس أن يجتذب الى عقيدته ، بقوة اقناعه ، عددا ليس بالقليل ممن يشار اليهم فىالاسكندرية .

أدرك الاسقف السكندرى ضرورة حسم هـــذا الخلاف قبل أن يستفحل أمره . ويتعرض شعب الكنيسة فى المدينـــة الى انقسام يودى بوحدتها العقيدية .. فدعى اكليروسه عام ٣١٩ الى عقـــد مجمع دينى فى الاسكندرية .. وقرر المؤتمرون انزال اللعنة بالقس السكندرى .. آريوس .. وقطعه من شركة الكنيسة .

غير أن آريوس كان قد آمن ايمانا كاملا بصحة ما يدعو اليه .. وأن حديث الفكر والعقل لابد وأن يعلو على ما دونه .. فكتب رسالة الى صديقه ورفيق دراسته فى المدرسة الانطاكية .. يوساب أسقف نيقوميديا فى آسيا الصغرى . أخبره فيها بما يلقاه من العنت والاضطهاد نتيجة لهذه الآراء التى جهر بها .. ومن هذه الرسالة نعرف أن جل أساقفة سوريا وفلسطين عدا ثلاثة فقط . .قد تابعوا آريوس فى عقيدته بعد أن حملت اليهم الانباء فحوى ما دار بينه واسكندر .. ولا شك أن هذا يعود الى التأثير الكبير الذى أحدثته مدرسة أنطاكية اللاهوتية .

ولما ضيق على آريوس فى الاسكندرية .. هجرها الى صديقه يوساب .. الذى دعا رفاقه فى سوريا وفلسطين الى عقد مجمع دينى للنظر فيما جاء به القس السكندرى .. والتأم عقد المجمع .. وقر قراره فى النهاية على قبول دعوة آريوس .. وتوجيه نداء الى اسكندر كى يقبله فى شركة الكنيسة ثانية .. غير أن اسكندر عد ذلك تحديا لسلطانه فى أسقفيته .. وتدخلا من جانب اخوة سوريا .. وفى عام ٣٢١ عقد فى الاسكندرية بناء على دعوته مجمع جديد ضم

اساقفة مصر والمدن الخمس الغربية وليبيا .. وأصدورا قرارهم بتجديد لعنة آريوس وحرمانه من رحمة الكنيسة وعدوه مهرطقا .

وطوال ثلاث سنوات آتية .. دار الصراع سافرا بين آريوس وانصاره .. واسكندر ومؤيديه .. وسعى كل من الرجلين الى اكتساب أكبر عدد من الاساقفة الى جانبه. حتى اذا كانت سنة ٣٢٤ .. أضحت معظم كنائس سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى تدين بالعقيدة الآريوسية .. وأحست الكنيسة الجامعة أن هذه الدعوة الجديدة تفوق كل ماعرض للكنيسة قبل ذلك على امتداد القرون الثلاثة الماضية .. وأنها تلاقى نجاحا سريعا لم تستطع أن تصل اليه آراء اى من رجالات الكنيسة .. الذين نادوا بما يخالف ايمان الكنيسة الكاثوليكية . ودارت الرسائل بين اسكندر وسميه أسقف القسطنطينية تستنكر هذا الانتشار السريع للعقيدة الآريوسية.

وشاء القدر أن يكون هذا العام .. هو السنة التى أصبح فيها قسطنطين امبراطورا فردا للامبراطورية الرومانية . وكان قسطنطين منذ اثنتى عشرة سنة مضت .. قد أدرك تماما أن هذه الجماعة التي طال حرمانها واضطهادها ..

ولم يزدها ذلك الا اصرارا على عقيدتها وعنادا . .
يمكن أن تتقدم له الكثير .. لو انه بسط اليها يده
بالقليل . ولكن قسطنطين بذكائه لم يقدم هـــذا
القليل . بل أغرق الكنيســـة المسيحية فى فيض
أنعمه ، حتى أمست تسبح بحمده فى كل حين وآن
شـــاكرة مقدرة .

ولكن قسطنطين أصيب بخيبة أمل بالغة وهـــو
يخطـــو أولى خطـــواته فـــوق أرض الشرق
الامبراطورى .. أمله ومبتغاه .. اذ رأى فيـــه
هذا الصدع حادثا بين الجماعة التى يعول على
الافادة منها كبير أمل .. ولم يكن أمر العقيدة
المسيحية فى حد ذاته يعنيه فى شىء مطلقا .. فلم
يكن قسطنطين مسيحيا .. ولا حتى كان وثنيا . .
ولم يكن له من معبود سوى وحدة الامبراطورية
سياسيا . وكان اخشى ما يخشاه ان يرى هـــذا
الانشقاق ماثلا بين الرعية التى وضع عنها اصرها
والاغـــلال التى كانت عليها .. خاصـــــة وأن
الامبراطور كان قد اعتزم الاقامة فى الشرق واتخاذ
عاصمة جديدة فيه للامبراطورية . وظن الرجل
وقد انتصر فى معـــارك عديدة على كل خصـــومه
ومنافسيه ، أن كلمة واحدة منه كافية لرأب هذا
الصـــدع .. وان اصـــحاب القلنســـوات أولاء

والترانيم .. لن يكونوا أقوى من أصحاب التيجان أولئك والعروش .. وخيل اليه أن الكنيسة لا يمكن أن ترفع الراس معارضة ولى النعم .

من أجل هذا استدعى اليه مستشاره للشئون المسيحية .. هوسيوس أسقف قرطبة ، وحمله رسالة الى اسكندر وآريوس .. قطبى النزاع فى الاسكندرية ، شن فيها على الرجلين هجوما عنيفا ، وحملهما تبعة هذا الشقاق .. وزجرهما على سوء استغلال ما لديهما من فراغ فى مثل هذه « المسائل التافهة العقيمة » .. ووصف فعالهما بأنها لاتعدو «حماقة وخلة طيش صبيانى» وحذرهما من نقل هذا « العبث » الى شعب الكنيسة .

واذا كانت هذه الرسالة تكشف بجلاء عن جهل الامبراطور الفاضح بالامور اللاهوتية أو العقيدية بعامة .. فقد آلم قسطنطين كثيرا أن يرجع اليه رسوله وقد حقق فى مهمته فشلا ذريعا . وتفتق ذهن قسطنطين ومستشاره عن الاقدام على سابقة هامة .. كان لها شأنها فى عالم الكنيسة بعد ذلك .. وهى الدعوة لعقد مجمع عام يضم أساقفة المسكونة لبحث هذه القضية .. حتى يجىء قرارهم جماعيا ملزما لكل الكنائس .

وفى مدينة نيقية .. وفى عام ٣٢٥ .. التقى ثلاثمائة وثمانيــة عشر أسقفا .. فى أول مجمع مســـكونى عرفته الكنيســــة . وكانت العقيدة الآريوســية على رأس ما تضمنه جدول أعمال المجمع . وليس لنــا هنـــا أن نخوض فى تلك التفصــيلات الدقيقة التى خاض فيها المجمع .. ولكن يعنينا من أمره ، فيما يتعلق بقضية قس الاسكندرية ، مسألتين على جانب من الاهمية .

أولاهما ــ أن آريوس قال باختصار أن المسيح « مخلوق » .. ووجدت الكنيسة نفسها فى مأزق حرج .. فقد كانت هى الاخرى ، حتى ذلك العام الذى عقد فيه المجمع ، تستخدم كلمة « مخلوق » و « مولود » بمعنى واحد يطلق على المسيح .. وكان عليها أن تجد لذلك مخرجا .. ولمــا كان آريوس يستخدم كلمــة « مخــلوق » فقد أعلن الحضور « أن ذلك ينسحب فقط على كل الخلائق والكائنات المائتة .. أما المســيح فهو مولود .. مولود وحيد .. وليس مخلوقا » . وأضافوا أن الكتاب المقدس ، كما جاء على لســان يوساب أسقف قيســارية فلسطين فى رسالته التى بعث بها الى أهل بيعته عن أحداث المجمع ، « يعــلم بأن المســيح مولود من الآب بطريقة يصـــعب

ادراكها .. ولا يمكن التعبير عنها لبنى البشر ».
أما الثانيــة ــ فقد جاء فى تعاليم آريوس أن المسيح « ليس غير مولود .. وليس جزءا من غير المولود .. ولا يســتمد كيانه من مادة » . وكانت هــذه أخطر من سابقتها .. ويبــدو من رسالة يوساب القيسارى التى اشرنا اليها الآن أن الخلاف احتدم فى المجمع حول هذا القول .. وطالت المناقشات بهدف البحث عن صيغة ملائمة يمكن الرد بها على راى آريوس هذا .. والغريب أن أساقفة نيقية لم يقدموا شــيئا من الكتــاب المقدس ، بل اعتمدوا عبارة يقول عنها يوساب القيسارى هذا ، شيخ مؤرخى الكنيسة ، « أن الاقدمين من مشــاهير الاساقفة والكنيســة قد استخدموها » . ولــكن الذى يسترعى الانتباه ما يذكره يوســـاب نفســـه ، من أن الامبراطور قسطنطين هــو الذى أوحى الى الجميع بهــذه العبارة وطلب الى الاساقفة جميعا التوقيع عليها ضمن صيغة المرسوم النهائى المتعلق بالايمان . وهــذه العبارة هى أن الابن « من نفس جوهر الآب » أو كما جاءت بنصها اليــونانى وذاعت به « هوموسيوس » .

ولعل ما يعنيه يوساب « بالاقدمين من مشاهير

الاساقفة » هو أن هذه العبارة وردت فى الرسائل المتبادلة بين ديونيسيوس أسقف روما وسميه أسقف الاسكندرية فى القرن الثالث ، فيما يختص بالرد على آراء سابيليوس أسقف طلميثة .. احدى المدن الخمس الغربية .. (فى برقة حاليا) ، والذى نادى بأن « الأقانيم الثلاثة ليست منفصلة ، ولكنها صور مختلفة للأقنوم الاول فى الثالوث » ويبدو أن قسطنطين ، بناء على نصيحة مستشاره هوسيوس ، قد رأى فى هذه العبارة شيئا يجمع الاساقفة على اتفاق ، خاصة وقد ارتضاها من قبل أسقفا روما والاسكندرية .. ولهما مالهما من شأن فى عالم الكنيسة وزعامتها . ويضيف يوساب أن الامبراطور راح يفسر هذه العبارة قائلا : « انها لا تعنى أية صفات جديدة أو تحول لان الابن لم يشتق وجوده من الآب بانبثاق أو انقسام .. ذلك أن الطبيعة اللامادية المجردة لا يمكن بحال ان تخضع لصفة جسدية .. تلك أمور ينبغى ادراكها باعتبارها تعاليم علوية خفية » .

ومع أن الامبراطور لم يكن مسيحيا .. ولم يكن يعى من أمر لاهوتها وأسرارها شيئا ، كما أبانت عن ذلك رسالته الى قطبى النزاع فى

الاسكندرية .. اسكندر وآريوس .. الا أن هذا الجمع الحاشد من الاساقفة فى نيقية لم يستطع أن يرفع الصوت معارضا لما رآه الامبراطور .. ويقول يوساب .. أبو التاريخ الكنسى.. بالحرف الواحـــد :

« ... وعندما سجلوا هذه الصيغة لم نتركها دون فحص فى جزئها القائل بأن الابن من نفس جوهر الآب .. وبرزت مسائل ومناقشات .. وبحث بدقة تامة مضمون هذا القول .. ثم اقتيد الجميع للاعتراف بأن عبارة « من نفس الجوهر » تعنى أن الابن من الآب .. وليس جزءا منـه .. ومن ثم راينا من الصواب تقبل هذا الرأى حبا فى السلام .. وخشية الانحراف عن قويم الايمان .. ولنفس العلة قبلنا عبارة « مولود غير مخلوق » .

وقد أصـــبحت هاتان العبارتان جوهر قانون الايمان الذى صدر عن مجمع نيقية .. وعرف بالايمان النيقى .. واضحى من بعد قاعدة الايمان الارثوذكسى للكنيسة الجامعة . على أن أهم مافى هذا الامر كله أن عبارة « من نفس جوهر الآب » أو « الهوموســـــية » شغلت مفكرى اللاهوت المســـيحى بعد ذلك زمنا طويلا .. ودار حولها

النزاع ، ونشأت حواليها مذاهب تتضاد وفرق تتصارع .. وكانت أهم الاعتراضات التى وجهت اليها أنها غير واردة فى الكتاب المقدس .

هكذا أدينت الآريوسية .. ولعنت .. وصدر قرار المجمع باعدام العمل الوحيد الذى وضعه آريوس يبين فيه دعوته .. كما صدرت الاوامر الامبراطورية بنفى آريوس وأصحابه . وحسبت الكنيسة أنها بذلك تخلصت الى غير رجعة من اشد الاخطار الداخلية التى عرضت لها . غير أن الامور لم تكن على هذا النحو من البساطة !!

وفى المنفى قضى آريوس ثلاث سنوات .. عكف فيها على نفسه يتدارس واياها مارتآه فكره وما جهر به اللسان .. ولم يحاول مطلقا أن يكتسب عطف الامبراطور .. أو أن يسترضى الكنيسة .. فقد كان يؤمن تماما أن ما جاء به هو الحق .. وأن ما يدعون من دونه هو الباطل .. وأن آراءه هذه تتفق وما يقره العقل ويفرضه المنطق . وفى الناحية الاخرى كانت الكنيسة تؤمن أن كل مافاه به آريوس محض زيف وضلال ، وأن دعوته ليست الا هرطقة جديدة قدر للكنيسة أن تواجهها . وظل آريوس غارقا فى فكره هذا الى أن أتاه خطاب الامبراطور

قسطنطين يستدعيه . غير أن قس الاسكندرية كان قد عزم على أن يمضى بقية عمره فى هدوء .. فلم يعر دعـوة قسـطنطين انتباها .. وبلغت رسائل الامبراطور اليه ثلاثا ، يطلب اليه فيها العـودة ، ومهما قيل عن الدوافع التى حدت بقسطنطين الى أن يكاتب القس السكندرى على هـذا النحـو .. فقد عاد آريوس ، وقدم الى الامبراطور بنـاء على رغبته ، وثيقة ايمان .. عدها قسطنطين قويمة .. رغم الغموض الذى يغلفها .. ورغم أنها جاءت خـلوا من قاعـدة الايمـان النيقى .. « مولود غـير مخـلوق » و « من نفس جوهر الآب » .

وعلى امتداد ثمانى سنوات آتية .. من ٣٢٨ وهو العام الذى عاد فيـه قس الاسكندرية من منفاه ، الى سنة وفاته ٣٣٦ .. دارت مراسلات وصدرت أوامر امبراطورية ومراسيم .. وعقدت مجامع كنسية ، كان الهدف منها جميعا محاولة اقرار ما وافق عليه قسطنطين .. بشأن اعادة آريوس ثانية الى شركة الكنيسة . ولكن أسقف الاسكندرية الجديد .. أثناسيوس .. الذى خلف اسكندر عقب موته سنة ٣٢٨ .. رفض أن يدخل القس الطريد فى شركة الكنيسة مرة أخرى .

كل هذا يجرى .. وآريوس راغب بنفسه عن الدخول فى مهاترات مع الخصوم .. ولكن الامبراطور صمم على أن يعود آريوس الى الاسكندرية . وخاصة بعد أن صدر قرار مجمع أورشليم سنة ٣٣٥ بقبوله ، ورفع الحرم الكنسى عنه . غير أن الاضطرابات اشتعلت فى الاسكندرية بين أنصاره وخصومه ، وخشى قسطنطين مغبة الامر ، فاستدعاه الى عاصمته الجديدة « القسطنطينية » وطلب الى اسكندر أسقفها قبول آريوس فى شركته .

وفى أحد أيام سنة ٣٣٦ .. احتشد الناس حتى ملأوا فناء الكنيسة بالمدينة .. ورجال الاكليروس يقدمون للرب الابتهالات والضراعة .. واسكندر أسقف العاصمة يغمغم بحديث لا يكاد هو يسمعه ، وقد بدا الشحوب على محياه ، بعد ليلة طويلة قضاها يقيم بينه وبين نفسه الصلوات التماسا لعون الاله فى الغد .. والاجراءات تجرى على قدم وساق لمقدم الامبراطور لحضور هذه اللحظات الحاسمة التى سوف يعلن فيها أسقف القسطنطينية سقوط قرار الحرمان عن آريوس وعودته الى شركة الكنيسة .. وآريوس ضائق بكل هذه الضوضاء التى تضع على فكره حجبا

وسياجا .. وقبل أن تحين اللحظة الحاسمة .. دخل قس الاسكندرية الى أحـــد الاماكن ليقضى حاجتـــه .. وطال انتظار الجمع له .. ولـــكن الرجل لم يعد .. فلما طلبوه وجـــدوه ملقى على الارض ، والى جواره أحشاؤه !!

لقد مات آريوس .

وأمام مذبح الكنيسة فى القسطنطينية .. تجمع رجال الاكليروس .. واقبل بعضهم على بعض يتساءلون .. وتفتر عن ابتسامة الرضى ثغورهم ويشيرون جميعا بأنها .. عدالة السماء !!

بهذا المشهد الدرامى العنيف .. ينهى مؤرخو الكنيســـة جميعا وأثناسيوس .. حيـــــاة قس الاسكندرية الشهير .. وقديما حدثتنا الاساطير عن حادثات بمثل هاته جرى بها قضـــاء آلهات الانتقام عنـــد الاغريق .. تراها هـــل بعثت فى آريوس من جديد ؟!

الحقيقة أن موت آريوس على هذا النحو يظل لغزا محيرا ... وسرا دفينـــا .. أتراه يبقى هكذا أم تكشف وثائق التاريخ عما جـــرى به الزمان يوما ما ؟!

وعلى أية حال .. فقـــد ظلت العقيـــدة الآريوسية تشغل ذهن الكنيسة والدولة طيلة قرن بأكمله .. وتمخضت عن فرق آريوسية عديدة.. خرجت كلها فروعا للآريوسية الاصلية . وحتى لما تمكن أباطرة بيزنطة من القضاء عليها فى الشرق حملها الجرمان كلهم ـــ عدا الفرنجة ـــ لهم دينا الى الغرب الامبراطورى .

ولا شك أن الاســـكندرية .. عن طريق قسها آريوس .. قد حازت فى عالم الفكر المسيحى الى جوار آبائها الاقدمين .. شهرة فائقة وأضحت عظيمة الصيت.. رغم أن الكنيسة أعلنت غضبها عليه .. ولكنها قضـــية القس السكندرى الذى شغل الاذهان قرونا من الزمان !! وكانت القضية البـــاب الذى فتح على مصراعيه أمـــام عمـــلاق الكنيسة السكندرية ورجل الايمان النيقى الشهير فى عالم المسيحية بأسره .. أثناسيوس .

صراع الايمان والسلطان

« ان أروع الانتصارات التى حققتها .. وتلك التى أحرزتها على ماجننتيوس وسيلفانوس ، لا تعدل عندى طرد هذا الوغد من رئاسة الكنيسة » .

الامبراطور قسطنطيوس

مالت الشمس الى المغيب .. مؤذنة بنهار بدأ يمسى .. وخلفت وراءها وجنات السماء وقد علتها حمرة الخجل وهى تستقبل ذلك الآتى القريب .. الليل .. وعلى صفحة الماء .. تراقصت أشعة الأصيل .. يداعبها موج هادىء فى يوم صحو جميل .

وعلى الشاطىء صبية فى عمر الزهور يمرحون ٠٠ ولكنه مراح جاد ٠٠ يتخيلون أنفسهم وقد ضمتهم بين أحضانها كنيسة للرب ٠٠ يقفون فى خشـوع أمام مذبح لها مقدس ٠

وعلى البعد القريب ٠ ومن شرفة احدى الدور ٠٠٠ وقف رجل تبدو عليه سـمات الوقار ٠٠ يقلب ناظريه هنا وهناك ٠٠ يبـدو من خلالهما أنه عـلى موعد مع بعض من كبار الشـخصيات ينتظـر مقدمهم ٠٠

ويمتد بصر الرجل الى الأفق البعيد ٠٠ حيث تحنو السماء فى رقة العاشق تقبـل ثغـر اليم الباسم ٠٠ ويسبح الرجل بحمـد ربه ٠٠ خالق الكل والصانع ٠

وفجأة ٠٠ تتعثر نظرات الرجل بأولاء الصبيـة عند الشـاطىء يمرحون ٠٠ ويحملـق الشـيخ مشدوها ٠٠ ويتعلق بهـم بصره وما يفعلون ٠٠ ويحدث نفسه ٠٠٠ أليس هذا الذى يؤدونه طقس العماد ؟!

ومن ياترى هـذا الفتى الذى ينـاول رفاقه سر المعمودية ؟!

ويستقبل الشيخ مدعويه ·· ويقودهم الى شرفة الدار ·· ويشير الى هناك ·· حيث الصبية لايزالون فى مرحهم ماضين ·· وتعقد الدهشة ألسنة الجميع · ويرسل الرجل خادمه يستدعى أولئك الصبية ، حتى اذا جاءوا وقد تملكهم الخوف ·· طمأن الشيخ منهم الخاطر ·· وبارك وصحبه مافعله الصبية من عماد ·· فقد كان الرجل هو اسكندر أسقف الاسكندرية ·· والاكليروس صحبه ·· أما الفتى الذى ناول رفاقه سر المعمودية فقد كان يدعى أثناسيوس · واستخلصه الأسقف لنفسه ·· يعلمه الكتاب المقدس ·· وينشئه تنشئة دينية خالصة ·· بعد أن لمح فى بريق عينيه ذكاء متقدا ·· وقوة ارادة ·

هذه هى الصورة التى يرسمها لنا مؤرخو الكنيسة جميعهم عن حياة أثناسيوس الاولى ··أما طفولته ·· أسرته ·· وحتى تاريخ مولده ·· فلا شيء نعرفه عن كل ذلك ·· وان كانوا يضعون مولده بين عامى ٢٩٦ و٢٩٨ على وجه التقريب · وكل الذى نعلمه يقينا من هذه الروايات ·· أن أثنايوس نشأ فى كنف اسكندر أسقف الاسكندرية ·· وكانت ثقافته اغريقية ·· شأن الطبقة المثقفة

فيعالم المتوسط آنذاك ، كما تبدى ذلك في كتاباته الاولى قارئا لهوميروس وافلاطون · وان كان قادرا في الوقت ذاته على أن يتحدث اللغة المصرية القديمة ·· ولكن الكتاب المقدس كان شغله الشاغل ·

وكان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ طريق أثناسيوس الى عالم الشهرة · اذ صحب أسقفه اسكندر الى هذا المجمع ، وبهر الجميع هناك بدفاعه القوى عن ايمان الكنيسة الكاثوليكية ضد العقيدة الآريوسية ·· وأحرز شماس الاسكندرية الصغير على هذا النحو سمعة له ·· ولكنيسته مكانة · وكان هذا التصدى للآراء الآريوسية بداية تاريخ طويل من الصراع بين أثناسيوس والآريوسيين ·· أساقفة ·· وأباطرة ··

وفي عام ٣٢٨ وجد أثناسيوس نفسه فجأة على رأس أسقفية الاسكندرية ·· بعد وفاة أسقفه وأستاذه اسكندر ·· ولم يغب عن ذهن الأسقف الجديد انه يحتل مكانة مرموقة فى عالم المسيحية بما تمثله كنيسة الاسكندرية من ماض عريق ·· وما قدمته الى المسيحية من أعلام فى الفكر واللاهوت ·· واستعادت ذاكرته القديس مرقس الانجيلي ·· أول كاروز بالمسيحية فى مصر ·· ومؤسس البيعة

السكندرية ·· وكلمنت وأوريجن وديونيسيوس ·· رجال الفكر واللاهوت ·· وأوريجن بوجه خاص ·· الذى أضحى بآرائه اللاهوتية مثار جدل عنيف حتى القرن الساس الميلادى ·

ولم يفت على أثناسيوس أيضا ·· ماتمثله مدينة الاسكندرية من مجد سالف فى عالم السياسة ·· فاذا كانت الآن مجرد عاصمة ولاية امبراطورية ·· فقد كانت من قبل حاضرة امبراطورية زاهرة زمن البطالمة ·· وأضحت كذلك على عهدهم ·· ومن بعد ·· من أهم مراكز الحضارة الهللنستية والفكر ·· يشد اليها الدارسون الرحال من كل أنحاء الامبراطورية لينهلوا من نبع مدارسها الفلسفية ·· ثم اللاهوتية فى عهدها المسيحى ·· والتى اتسعت لتشمل الى جوار اللاهوت مختلف فروع المعرفة الانسانية فى العلوم والفنون والآداب ·· ويكفى أن نقرأ فقط مرثية جريجورى أسقف نازيانزا (فى آسيا الصغرى ـ تركيا حاليا) التى ينعى بها أخاه · لنعلم الى أى حد كانت الاسكندرية تمثل عقل عالم المتوسط آنذاك الى جوار أثينا ·

وقبل هذا كله . . كانت هناك مصر كلها ، بمجد الآلاف من السنين والحضارة ، يمثلها الآن هذه

الجماعات الكبيرة من الرهبان ، برفضهم المتواصل للسيادة الامبراطورية فى عهدها الوثنى والمسيحى، وكان هؤلاء الرهبان هم العصا الغليظة — أن صح هذا التعبير — التى هوى بها على رأس مخاصميه.

ومع هذا الارث الضخم .. كان أثناسيوس شديد الولاء للعقيدة التى دافع عنها فى مجمع نيقية ، وظل مخلصا لها طيلة عمره ، حتى لقد ارتبط اسمه ارتباطا وثيقا بالعقيدة النيقية لايمكن لأحد أن يحدث عن أيهما دون الآخر . وكان يرى فى هذه العقيدة أثرا لسلفه الأسبق ديونيسيوس، الذى كان يحمل له فى نفسه كل التقدير والاعزاز، وخاصة فيما تضمنه قانون الايمان النيقى من عبارة « من نفس جوهر الآب » . وان بدا لنا غريبا دائما أن أثناسيوس لم يستخدم هذه العبارة فى أسفاره الضخمة ، وبصورة خاصة فى كتاباته التى تتصل بالمسائل العقيدية ، الا مرة واحدة أو اثنتين على الأكثر !!

ومن هذه الركائز .. الكنيسة .. والمدينة .. والدين .. والرهبان .. استمد أثناسيوس قوته فى صراعه الطويل من الآريوسيين عقيدة وحكومة .

كانت الاريوسية كما علمنا هى الباب الذى ولج منه أثناسيوس الى دنيا الشهرة .. واذا كان

آريوس قد مات ٠٠ الا أن الآريوسية لم تمت الا بعد ذلك بزمان طويل ٠٠٠ وحتى فى الوقت الذى قضى عليها فى الشرق مع نهاية القرن الرابع ٠٠ فقد ظلت للجرمان فى الغرب دينا ٠

أما الأباطرة بصفة عامة ٠٠ فكانت مشكلتهم الرئيسية تنحصر فى فرض سيادتهم على الكنيسة ٠٠ سواء كانوا يدينون بعقيدة نيقية ٠٠ أو على الآريوسية ٠٠ أو يعبدون الأرباب ٠٠ أو لا دين لهم على الاطلاق ٠٠ فهم الذين حرروا الكنيسة من ربقة الاضطهاد وأعادوا اليها أموالها المصادرة وأمن بنيها ٠٠ ومن ثم كان على الكنيسة أن ترد الجميل الى هذه اليد البيضاء التى امتدت اليها فى ساعة العسرة ، من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق من رجالاتها ٠٠ ولم يكن الفكر الرومانى يقبل آنذاك قيام هيئة مستقلة ، حتى لو كانت دينية ، تنأى بنفسها عن الدولة ٠٠ بمعنى آخر ٠٠ دولة داخل الدولة ٠ فقد كان الامبراطور فى الدولة الوثنية يحمل لقب الكاهن الأعظم ٠٠٠ فهو السيد الأعلى فى كل أمور الامبراطورية ٠٠ وهو لايزال حتى الآن ، بعد أن تحول الاباطرة الى المسيحية يحمل نفس اللقب ٠٠ ويضيف اليه من عندياته أنه الاسقف الأعلى ٠ من أجل هذا كان ضروريا أن تصطدم الدولة بالكنيسة

فى شخص أى من أساقفتها • ومهما يكن من أمر ••
فان النزاع بين الدولة والكنيسة فى الامبراطورية
البيزنطية لا يعدو مجرد حالات فردية فقط ••كانت
الدولة هى المنتصرة فيها غالبا •• ولم تكن الكنيسة
تزيد على كونها مجرد دائرة من دوائر الحكومة ،على
عكس ماكان عليه الحال تماما فى أوروبا •• اذ
يمثل الصراع بين البابوية والامبراطورية فصلا
طويلا وأليما فى تاريخ العصور الوسطى ••
ويرتكز على نظرية السيفين •• الروحى والزمنى •

وشاء القدر •• أن تكون كنيسة الاسكندرية
فى عهد أسقفها أثناسيوس •• هى التجربة الاولى
فى هذه العلاقات الجديدة بين الدولة والكنيسة •

علمنا أن الامبراطور قسطنطين قد أصدر أوامره
بنفى آريوس سنة ٣٢٥ •• ثم عاد فعفى عنه فى
عام ٣٢٨ •• وأمر بعودته الى الكنيسة •• وعلمنا
أيضا أن أثناسيوس رفض الاستجابة لرغبة
قسطنطين •• وكان هذا الرفض بداية الطريق الى
عالم النفى والتغريب •• ومزيد من الشهرة فى
الوقت ذاته •

فلم يكن يدر بخلد الأمبراطور مطلقا أن أحدا
من رجال الكنيسة مهما علا شأنه ومكانة كرسيه

سوف يعصى له أمرا .. وهو الذى بعث فيهـــم من جديد .. حياة . وســاعد الأسقف السـكندرى بمسلكه هذا خصومه من الآريوسيين على أن يكسبوا الحظوة لدى الامبراطور .. ومن ثم اشيعت بعض الاتهامات التى تمس سلوك أثناسيوس الشخصى دون عقيدته .. وأوحوا الى الامبراطـور أن يدعو لعقد مجمع كنسى كى يبرىء أثناسيوس نفسه أمام رفاقه من الأساقفة .. ووقع اختيار قسطنطين على مدينة قيسارية فلسطين لتكون مـكانا للمجمـــع وذلك فى عام ٣٣٣ .. غير أن الأسقف السكندرى رفض ثانية الاستجابة لدعوة الامبراطور .. فخسر بذلك فى جولة واحدة عطف قسـطنطين وتعاطف الاخوة الأساقفة ..

وفى عام ٣٣٥ كان الغضب قد استبد بالامبراطور وتملك الحنق على الأسقف السكندرى كل نفسه . ومن ثم أصدر أوامره بأن يلتقى الاساقفة فى مجمع ينعقد فى مدينة صور .. وشفع دعوته الى الاساقفة برسالة تهديد كانت تعنى فى حقيقتها أثناسيوس وحـــده .

قال الامبراطور :

« ولئن تجاسر أحد ·· مع اعتقادى بأن ذلك لن يكون ·· على عصيان أمرى ، ورفض الحضور الى المجمع ، فلأرسلن اليه من يطرده بواقع مرسوم امبراطورى ·· ويلقنه أنه لايليق بمثله أن يعترض قرارات الامبراطور حين يكون عن الحق دفاعه » ·.

ولم يكن أمام اثناسيوس من سبيل كى يثاقل عن الذهاب الى المجمع ، فارتحل كارها الى صور ·· يصحبه جمهرة كبيرة من اكليروسه ، وتسبقه الاتهامات بأنه قتل أحد رجال الاكليروس وأنه اعتدى على حرمة كنيسة مريوط ·· وانه ازدرى اخوته الأساقفة ·· وأنه فوق هذا وذاك عصى من قبل أوامر الامبراطور ·

واذا شئنا الدقة فان مجمع صور تحول الى محكمة مدنية وقف أثناسيوس أمامها موقف المتهم· ولما كان خصومه هم فى نفس الوقت قضاته ··اذ أن كنائس الشرق جلها دانت بالعقيدة الآريوسية، وتزعم يوساب أسقف نيقوميديا جماعة الآريوسيين، حتى لقد حملت من بعد اسمه الى حين وأضحى أنصاره يعرفون باليوسابيين · وأدرك الأسقف السكندرى أن قضيته لا محالة خاسرة ، فعزم على

أن يعرض الامر بنفسه على الامبراطور ، ولهذا ترك المجمع فى صخبه .. وشخص الى القسطنطينية للقاء قسطنطين . ووجدها المجمع فرصة سانحة ، فأصدر قراره بادانة أثناسيوس وحرمانه من رحمة الكنيسة وعزله من أسقفيته وعدم السماح له بدخول الاسكندرية .

ومن رسالة بعث بها الامبراطور الى أساقفة صور ، نعلم أن أثناسيوس ألح فى لقاء قسطنطين الذى رفض مرارا ، ولا شك أنه أراد بذلك اذلال الرجل وتحطيم كبريائه ، بعد أن تمرد على أوامره قبل ذلك مرتين .. ثم سمح له بلقائه .. فلما عرض عليه شكواه ، كتب قسطنطين الى أساقفة مجمع صور يستدعيهم للمثول بين يديه ، ليحكم فى الامر بنفسه . وكان هؤلاء الاساقفة قد ارتحلوا قبل أن تصلهم هذه الرسالة الى أورشليم لتدشين الكنيسة الفخمة التى كان قد بناها قسطنطين .. وللاحتفال فى الوقت ذاته بالعيد الثلاثينى لحكم الامبراطور .. وعقدوا مجمعا فى أورشليم صدقوا فيه من جديد على قرارات صور وأضافوا اليها قبول آريوس فى شركة الكنيسة والسماح له بالعودة الى الاسكندرية .

والى القسطنطينية خف عدد من هؤلاء الأساقفة وعلى رأسهم يوساب النيقوميدى ·· وهناك أعادوا على مسامع الامبراطور نفس الاتهامات التى وجهت الى أثناسيوس من قبل ، وحرصوا على أن يبرزوا من بينها جانب عصيانه للامبراطور ، ثم أضافوا أن الأسقف هدد بعرقلة وصول القمح من الاسكندرية الى روما الجديدة ·· القسطنطينية ·

عندها جن جنون الامبراطور ·· فقد كانت مصر قبو الحنطة للامبراطورية الرومانية ·· حتى أن أحد المؤرخين عبر عن ذلك فى عبارة جامعة حيث قال : « اذا سألت أى أمبراطور رومانى عن الذى يربط مصر بالامبراطورية ·· لأجابك على الفور : القمح والنقود » ·· ولم يكن من السهل على قسطنطين بالذات أن يرى مدينته الجديدة تتلوى من المجاعة بسبب تعنت أسقف الاسكندرية ·· ويصف أثناسيوس هذه اللحظات بقوله «لم يتمالك الامبراطور نفسه من الحنق والغيظ ·· ولم يصغ الى قالتى ·· بل أمر على الفور بنفيى الى غالة» ·

هكذا بدأ الأسقف السكندرى رحلة العذاب التى امتدت قرابة نصف قرن ·· ولو حاولنا أن نتتبع هذه الرحلة بتفصيلاتها الدقيقة ·· وأحداثها لما

انتهينا . ولكنا سنحاول فقط أن نلقى الضوء على بعض منها مما يمس الاسقف مباشرة ويتصل بدائرة الصراع بينه وبين الدولة .

لاشك أن أثناسيوس قد حزن لقرار الامبراطور بنفيه .. ولكن لاشك أنه اغتبط بعد ذلك بسنوات لنفس القرار .. اذ أن هذا النفى جعل من قضية أثناسيوس والعقيدة النيقية ، أمرا واحدا ذاعت فى عالم الغرب شهرته بعد أن كان من صميم قضايا الشرق الامبراطورى .. فالغرب لم يزل يذكر شماس الاسكندرية الصغير فى مجمع نيقية ودفاعه عن الايمان الأرثوذكسى وها هو يجد أثناسيوس نفسه ، وقد غدا الآن أسقفا ، قائما بين أحضانه . وان كان منفيا .. وكان سبيل التقارب بين أثناسيوس والغرب سهلا ميسرا ، ذلك أن الغرب كان ، كما يصفه مؤرخ من بنيه ، قليل الثقافة .. لايقاس بما كانت عليه مدائن الشرق الهللنستى من الرقى الفكرى وسعة الأفق . وقد قبل دون نقاش العقيدة المسيحية التى حملها اليه القديسان بطرس وبولس ، ولهذا كان من الصعب .. بل من العسير أن يتقبل أو حتى يتفهم طبيعة الجدل اللاهوتى العنيف الدائر فى الشرق من حول المسيح . ومن ثم لم تحظ الآريوسية بأى نجاح فى

الغرب ٠٠ واذا كان الجرمان قد اعتنقوا الآريوسية ٠٠ فقد ظلت دين السادة الجدد فحسب ٠٠ وعليه يمكننا أن ندرك سبب التقارب السريع والمــودة الكاملة التي وجدت بين الأسقف السكندري ٠٠ وكنائس الغرب ٠٠ أساقفة وجموعاً ٠

من أجل هذا أيضا لم يتردد أثناسيوس لحظة واحدة ، عندما ظهرت نيات الامبراطور الجديد قسطنطيوس (٣٣٧ - ٣٦١) الذى خلف أباه ، شريكا مع أخوته قسطنطين الثاني وقنسطانز فى حكم الامبراطورية ٠٠ لم يتردد الأسقف فى الفرار الى الغرب عندما ظهرت ، كما نقول ، نذر الشر من جانب قسطنطيوس وأمر بنفى أثناسيوس سنة ٣٣٩ ، وكان قد عاد بعد وفاة قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧ ، وتعيين أسقف جديد من الآريوسيين خلفا له ٠

وكان هذا هو النفى الثانى لأثناسيوس ، وقد أمضى فى الغرب سبع حجج متنقلا بين مدائن ايطاليا وغالة ، وكسب الى جوار صداقة الاساقفة هناك ، عطف أمبراطور الغرب قنسطانز على قضيته وقضية النيقية بعامة ، حتى تمكن فى النهاية من أن يحقق نجاحا بعيدا ، عندما التقى فى سرديكا حوالى

مائة أسقف بسنة ٣٤٣ يمثلون كنائس ذلك الجزء من الامبراطورية ، وأصدروا قرارهم بتبرئة أثناسيوس من كل التهم المنسوبة اليه ، واعادته على الفور الى كنيسته .. بل لقد بلغ الامر الى حد أن كتب قنسطانز رسالة الى أخيه قسطنطيوس امبراطور الشرق يهدده فيها باعلان الحرب اذا لم يستدع أثناسيوس ليرعى من جديد شئون البيعة السكندرية !!

وقد أحنى قسطنطيوس بالفعل رأسه للعاصفة، ولم يسمح للأسقف السكندرى بالعودة الى أسقفيته فحسب . بل ألح فى ذلك .. وبعث اليه برسائله، وأرسل اليه خاصته .. وتروى لنا المصادر الكنسية قصة ذلك اللقاء الذى دار بين الأسقف والامبراطور أثناء لقائهما فى أنطاكية .. والاسقف يتخذ سبيله فى رحلة العودة الى الاسكندرية .. فقد دار بينهما حديث قصير ولكنه مثير .. أملته الكراهية المتبادلة ، نتيجة الخلاف العقيدى بينهما ، وطبيعة السيادة .

فقد طلب الامبراطور من الأسقف أن يسمح بتخصيص احدى الكنائس فى الاسكندرية .. ليقيم فيها الآريوسيون طقوس معتقدهم .. وأجاب

أثناسيوس بأنه لامانع لديه مطلقا من ذلك شريطة أن يمنح الامبراطور احدى الكنائس فى أنطاكية الى النيقيين ليمارسوا فيها شعائرهم .. وقد أسقط فى يد الامبراطور لهذه الجرأة المتناهية من جانب الأسقف السكندرى .. ولكنه تحامل على نفسه ، وتقبل ذلك القول بابتسامة كشفت عن أنياب سخطه .. وأسرها قسطنطيوس فى نفسه ولم يبدها .. ولكنه لن يغفرها !

وفي عام ٣٥١ شهد الجزء الغربى من الامبراطورية فتنة أودت بحياة الامبراطور قنسطانز على يد أحد قواده ويدعى ماجننتيوس .. ولمدة ثلاث سنوات، وقعت الامبراطورية فريسة الحرب الاهلية ، حتى اذا جاء عام ٣٥٣ كان ماجننتيوس قد اتخذ من سيفه متكئا .. وأنهى بهذه الصورة حياته ،ووجد قسطنطيوس نفسه سيدا فردا للامبراطورية كلها.

تملك الاضطراب والقلق على أثناسيوس كل سبيل .. فقد كان يعلم تماما أن قسطنطيوس آريوسي عنيد ، وأنه لم ينس أبدا أنه عاد الى أسقفيته ذات مرة رغم أنفه ، معتمدا على قوة امبراطور الغرب وقرار أساقفته الجماعى .. وأنه وقف يوما فى انطاكية موقف الند للامبراطور ..

يرد عليه بمثل مايسأل ٠٠ ودارت بذاكرته أطياف وفود الفريقين المتصارعين ابان الحرب الاهلية ٠٠ قسطنطيوس وماجننتيوس ٠٠ وهم يسعون الى الاسكندرية يخطبون وده ، ويرجون وقوفه الى جانبهم ٠٠ فاذا هو الآن بعد انتصار الامبراطور الآريوسى ، يقع فريسة الاتهام بأنه يسمح لمندوبى قاتل قنسطانز بالقدوم اليه ، وسمح لنفسه باستقبالهم والتفاوض معهم ، ولم تجده نفعا تلك السفارة التى بعث بها الى قسطنطيوس لتنكشف حقيقة نواياه ، فقدسبقه الامبراطور فى ذلك وكتب اليه يحذره من ارسال أى وفد اليه ٠

وكان الامبراطور يشعر فى قرارة نفسه بمرارة عميقة جرعها اياه أسقف الاسكندرية مرتين من قبل ٠٠ وأنه دفع الى احتسائها كرها بفعل الاحوال السياسية والعسكرية السيئة التى كانت تحيط به ٠٠ ولكن الفلك الآن دار دورته ، وحانت ساعة القصاص من ذلك الاسقف العنيد المجترىء على مقام الاباطرة !

هكذا أضحت المسألة صراعا شخصيا سافرا بين الاسقف والامبراطور ٠٠ لا دفاعا عن العقيدة ، ولكن سعيا للحفاظ على مكانة أو اثبات سلطان !

وأدرك قسطنطيوس أن السلاح الذى يمكن أن يستخدمه أثناسيوس فى حربه هو الغـــرب .. بأساقفته وجموعه ، بعد أن قتل امبراطوره ، ومن ثم عزم على أن يحرم خصمه هذه القوة ، فانتهـــز فرصة وجوده هناك بعد انتهاء الحرب الاهليـــــة مباشرة ، ودعا اساقفة غالة أولا الى عقد مجمع فى مدينة آرل سنة ٣٥٣ ، ثم دعا أساقفة الغـــــرب

للاجتماع ثانية فى ميلانو عام ٣٥٥ .. وأصــــدر المجمعان قرارهما ، بادانة أثناســـيوس ولعنـــه وحرمانه من شركة الكنيسة .. ولما رفض الأسقف الرومانى ليبريوس مشـــــــاركة المجمعـــين قرارهما اقتيـــد الى القصـــــــر الامبراطورى ، ودار بينه وبين قســـطنطيوس حديث طويل كان الاسقف السكندرى محوره ، وعبر الامبراطور عن مدى الكراهية التى يكنها لاثناسيوس ، وبدا ذلك واضحا فى عبارته « أن أروع الانتصـــارات التى حققتها ، وتلك التى أحرزتها على ماجننتيـــــوس وسيلفانوس .. لاتعدل عندى طرد هذا الوغد من رئاسة الكنيسة » ! .. وانتهى ذلك الحوار ، الذى حفظه لنا مؤرخ الكنيسة ثيودوريت ، بأن صدرت الاوامر الامبراطورية بنفى ليبريوس جزاء اصراره على تأييد أثناسيوس .

وكلما طالت فترة الانتظار والترقب ، ازداد القلق واضطرمت نفس الأسقف السكندرى بالهواجس ·· وكان الامبراطور قد عمد منذ تمت له السيادة على الامبراطورية سنة ٣٥٣ الى وسيلة التعذيب النفسى لاثناسيوس ، فراح يرسل مبعوثا وراء الآخر الى الاسكندرية ، يمضون فيها بعض الوقت ثم يعودون الى سيدهم ، وكلما قدم أحدهم الى المدينة طفر قلب الاسقف بحثا عن الامان ، وهرع لفوره الى القادم يسأله ان كان يحمل شيئا من الامبراطور يفصح عما ينتويه تجاهه ·· وكلما أجاب هؤلاء بالنفى كلما ساورت الشكوك الاسقف السكندرى فى نيات الامبراطور ·

كانت فترة عصيبة تلك التى عاشها اثناسيوس طوال هذه السنوات الثلاث (٣٥٣ ـ ٣٥٦) ·· بل ربما كانت أقسى الفترات التى عانى منها ، حتى فترات نفيه المتتابع ، وكانت مظاهر القلق والتوجس والشك والتخوف والارتياب التى تنتاب الاسقف مع أيام هذه السنوات والليالى تترك جراحاتها العميقة وأثرها فى نفس أثناسيوس ·· ولعل هذا هو ما كان يبتغيه الامبراطور ، حتى اذا خارت بها قوى الاسقف أذعن للامبراطور ودان ·

وذات ليلة .. غلفت المدينة بسكونها والظلام، الا من ضوء خافت ينبعث من كنيسة ثيوناس ، يشير الى أن صلاة بها تقام .. وعلى رأس الجمع المبتهل يقف راعى الاسقفية أثناسيوس .. والكل يضرع الى الرب بالمزامير .. وفى حلكة الليل خارج الكنيسة أشباح .. يبدو أنها لجنود تستتر بالسواد .. تشارك الليل وهو يحدق بالكنيسة .. وفجأة .. يتقدم قائدها ويقتحم أبواب الكنيسة تصحبه كوكبة من جنده ، واحاطوا بجموع المصلين .. وعلى الفور تكاثر الاكليروس والرهبان على أثناسيوس .. وأخفوه وسطهم ودلفوا به الى خارج الكنيسة .

وكان الهدف من هذا الهجوم واضحا .. وهو القبض على الاسقف السكندرى .. ولكن يبدو أن الجنود ، الذين جمعوا على عجل من انحاء مصر كما تروى المصادر، لم يكونوا يعرفون أثناسيوس. ولابد ان اهمالا فى تنفيذ جانب من خطة الهجوم، ادى بالتالى الى فشلها .. وخروج أثناسيوس سالما .

وعلى الفور .. ولى أثناسيوس وجهه شطر الغرب .. متخذا طريق الصحراء الغربية والصحراء الليبية سبيلا يقوده الى ايطاليا ..

حيث أنصاره وأحباؤه ·· وكتب في رحلتـــه هذى دفاعا عن نفسه ، عـــزم على أن يقدمه الى الامبراطور الذى كان يقيم آنذاك فى ميـلانو ·· غير أن أثناسيوس تلقى وهو فى طريقه تقـارير تفيد أن أساقفة الغرب جميعا قد أدانوه وحرموه فى مجمعى آرل وميلانو ·· وأن صديقه ليبريوس قد تم نفيه ·· وأن الامبراطور قد صدق على عزل أثناسيوس واختيار أسقف جديد هـــو جورج الكبادوكى خلفا له على كرسى الاسكندرية ·· وأنه قد بث عيونه تترصد خطى الاسقف فى كل درب للقبض عليه وتقديمه للمحاكمة ·

عندها ·· أدرك أثناسيوس أنه فقد سـلاحا هاما ضد سلطان الاباطرة ، بعد أن أذعن الغرب ونزل على ارادة قسطنطيوس ·· وأدان الاسقف السكندرى ·· وهنا عاد أدراجه أثناسـيوس الى مصر ·· الى صحراء وادى النطـــرون ·· حيث أخلص الاصدقاء ·· الرهبان ·

وكان أثناسيوس ، منذ اعتلى عرش الاسقفية، يعمل جاهدا على توطيد صلته بالرهبان· وساعده على ذلك معرفته للغة المصرية القديمة ، لســان الجماعة ، وبلغت هذه الصداقة أوجها عنـدما قدم

أبو الرهبان انطونى بنفســـــه الى الاســـكندرية سنة ٣٣٨ ، عقب عودة أثناسيوس من نفيه الاول ليعلن فى الملأ انه والرهبان جميعـــــا يؤيدون الاسقف السكندرى ، ويقفون وراءه صفا واحــدا ضد خصومه الآريوسيين ٠٠ ورد اثناسيوس على ذلك بأن خرج فى صحبة أبى الرهبان مودعا حتى أبواب المدينة ٠

وحرص أثناسيوس طيلة أسقفيته على أن يملأ بالرهبان وظائف الاكليروس الشاغرة فى مصـــر ، وكان الراهب سرابيون أسقف تمى (تمى الامديد حالية) يعتبر ساعد الاسقف الايمن ، تدل عــلى على ذلك رسائله اليه ، واتخاذه ســـــفيرا له الى بلاط الاباطرة ٠٠ ولعل نجاة أثناسيوس ليلــــة الهجوم على كنيسة ثيوناس تعود قبـــل كل شىء الى الرهبان ٠٠ كما أن هذه التقارير التى كانت تصل اليه تباعا وهو فى طريقه عبر الصحراء الى الغرب ، تدلنا بما لايدع مجالا للشك على هـــذا التنظيم الدقيق والسرية الكاملة التى اتبعهــــــا الرهبان للحفاظ على حياة الاسقف السكندرى ٠

وفى ضيافة الرهبـــــان وحماهم ٠٠ أمضى أثناسيوس ست سنوات تمثل رحلة نفيه الثالث

كانت دون ريب أزهر سنى عمره على الاطلاق ٠٠
اذ أفرغ فيها خلاصة فكره العقيدى والسياسى
والنسكى ٠٠ شاء القدر أن يحتفظ لنا بهذه
الاسفار الضخمة حتى نقف من خلالها على فكر
الرجل وطبيعة العصر ٠٠

حتى اذا كانت سنة ٣٦١ مات قسطنطيوس ،
وخلفه على عرش الامبراطورية ابن عمه جوليان ٠٠
ولم يكن الامبراطور الجديد نيقيا كأثناسيوس ٠٠
ولا آريوسيا كسلفه الراحل ٠٠ ولا مسيحيا
معتدلا كخلفه جوفيان ٠٠ ولا غير دينى على
الاطلاق كرأس أسرته قسطنطين الكبير ٠٠ ولكنه
كان وثنيا يعبد الارباب ٠٠ رأى فى الشمس كما
رأى فيها من قبله اخناتون ٠٠ مصدر الحياة والخير
وقسمها الى ثلاث شموس ٠٠ شمس عليا ٠٠
لاتدركها الحواس و لايرقى اليها العقل ٠٠ علة
العلل ومملكتها الاولى ، وشمس دنيا ٠٠ محسوسة
ناقصة ٠٠ وشمس وسطى ٠٠ مدركة بالعقل ٠٠
والاولى لايمكن بلوغها وبالتالى تستحيل عبادتها ،
وشمس الدنيا متغيرة ٠٠ لاترقى الى مرتبة
الربوبية ٠٠ أما الوسطى ٠٠ فهى التى عبدها
جوليان ودعاها الملك الشمس ٠

كره المسيحية وهو بعد صبى ... كتب عنهـــا يقول : « كلما تذكرت يوم عمـــادى .. تذكرت كابوسا مخيفا » .. ورأى فيها طقوسا جوفاء .. وتعاليم تفرض بسلطان الاساقفة والتهديد بالطـرد من ملكوت السماوات والعقاب الابدى .. دون أن يسمح للعقل فيها بأدنى حراك . ولم يكن جوليان يقبل ايمانا هذا شأنه .. لقد عشق الرجل ثقافة الاغريق وفكرهم وفلسفتهم .. وتنقـــل ما بين القسطنطينية ونيقوميديا وبرجامة وأثينا دارســا لفلسفة الاغريق .. ينهل منها ما وسعه فكره .. ولم يكن من السهل عليه أن يتقبل كل ما لقنـــه اياه الاسقف الذى انتدبه الامبراطور لتعليمه .. وانصرف عن ذلك الى الطبيعة يناجيها .. ويرى فى الليالى الصافيات شمسه التى يعبدها .

ومنذ أفصح جوليان عن عقيدته ... وضـــع المسيحيون فى الامبراطورية ايديهم على قلوبهم .. واستعادوا بذاكرتهم تلك الايام والليالى الســـود التى قضوها تحت وطأة اضطهاد الاباطرة الوثنيين

ولكن جوليان سلك سبيلا اخر غير سبيل العنف، فجرد الكنائس من أموالها وأملاكها .. وبرر ذلك بسخريته اللاذعة قائلا انه يســاعد المسيحيين على

دخول ملكوت السماوات ، لان ما جاء فى الكتاب المقدس فى عهده الجديد يعلن ان الاغنياء لاسبيل امامهم لدخول هذا الملكوت ، وأضاف ان هـــذه الاموال والاملاك كانت اصلا للمعابد وانه يردهـا عليها الآن .. وحرم على المسيحيين الاشـــتغال بالتدريس .. لانه لايعقل ان يتولى المدرســـون المسيحيون تدريس أفكار وفلســـفة المفـــكرين والفلاسفة الكلاسيكيين وهم يعتقـدون أن أرباب هؤلاء محض شياطين .

من هنا كان اضطهاد جوليان اضطهادا نبيلا .. والغريب أنه لم يلجأ الى العنف الا فى أخريات أيام حياته عندما بدأ به المسيحيون ..

وكان جوليان يرى ان يترك المسيحية تقضى على نفسها بيديها ، وذلك عن طريق الصراع الفكرى اللاهوتى العنيف الدائر جدالا من حول المسيح .. ولهذا فقد أصدر مرسوما سمح فيه بالعودة لكل الاساقفة الذين كان قسطنطيوس قد نفاهم .

وبهذا المرسوم عاد أثناسيوس الى الاســكندرية سنة ٣٦٢ .. ولكنه لم يمكث بها الا أشهرا معدودة ثم ارتحل عنها كارها ليبدأ بذلك نفيـه الرابع ، ذلك أن أثناسيوس فى هذه الاشهر القليلة عقـد

مجمعا فى الاسكندرية حاول به أن يرأب الصدع الحادث فى الكنيسة الانطاكية بين أتباع النيقية ، معتدليهم والمتطرفين ٠٠ ورأى جوليـــان في ذلك تبديدا لاماله بزيادة شقة الخلاف بعودة الاســـاقفة على أن الشيء الذى أثار ثائرته ٠٠ وتضمنته احدى رسائله٠٠ان اثناسيوس تمكن من استمالةعدد من الوثنيين ، وخاصة نساء الطبقة الارستقراطية فى الاسكندرية ، الى المسيحية ٠

من أجل هذا أصدر جوليان مرسوما خاصـــا ، قصد به الاسقف السكندرى وحده ، لانه لم يطبق الا عليه فقط ٠٠ وجاء فيه ٠٠ أن قرار الامبراطور بعودة الاساقفة المنفيين يعنى فقط عودتهـــم الى ديارهم دون ممارسة مهام مناصبهم الكهنوتية ٠٠ ثم شفع ذلك بأمر صريح الى نائبـــــه فى مصر بالقبض على أثناسيوس وطرده ، لا خارج المدينـة فحسب ، بل خارج مصر كلها ٠

وقبل أن تقع أيدى الجنود على الاســقف ، كان هو قد اتخذ طريقه فى النيل مصعدا الى أحبــابه الرهبان ٠ ومما يروى على لسان مؤرخى الكنيسة، أنه لما تهيأ أثناسيوس للفرار ، تجمع حوله نفـر من أصدقائه المقربين وقد أغرورقت عيـــــونهم

بالدموع حزنا لفراقه .. ولكن الاسـقف ربت اكتافهم قائلا .. « ان هى الا سـحابة سرعان ما تمضى » . ثم مضى هو فى طريقه .

ومن أطرف ما يذكر فى هـذه المناسـبة .. وماتردد بعد ذلك فى الملاحم الشعبية المصرية .. أن أثناسيوس عندما أبحر فى النيل بقارب أعد له جد جنود الامبراطور فى أثره ، فلما ادرك أنهـم قاب قوسين أو أدنى منـه ، أمر رفاقه أن يديروا وجهة القارب ثانية الى الشمال ، وسرعان ماالتقى بالعيون التى تتبع أثره، وتقدم أحد الجنود ليسأل من فى القارب عن أثناسيوس ان كانوا قد رأوه، وأجاب أثناسيوس نفسه .. أنه ليس بعيـدا عنهم . ومن ثم راح الجنود يضربون صفحة النيل ما واتتهم الريح والمجداف . بينما عاد أثناسيوس ثانية الى الاسكندرية ، ليختبىء فى عرين الاسد بضعة أيام ، حتى غفلت من حوله العيـون .. فانطلق مسرعا الى طيبة ..

وبين أديرة مصر العليا ورهبانها قضى الأسقف السكندري فترة نفيه الرابع ، حتى اتاه نبأ مقتل جوليان في الحرب الفارسية سنة ٣٦٣ ، والمناداة بجوفيان امبراطورا خلفا .. وكان الامبـراطور

الجديد مسيحيا متسامحا ، فاستدعى الاساقفة المنفيين للعودة الى كراسيهم ثانية .. وهرع أثناسيوس من ملجئه فى طيبة الى الرها مباشرة للقاء الامبراطور قبل أن يستأثر به الأريوسيون ، ويصف لنا المؤرخ الكنسي سقراط صورة الاساقفة وهم يتحلقون من حول الامبراطور .. يسيرون فى ركابه .. ويتبعونه اينما حل ابتغاء مرضاته، ولكن جوفيان كان عارفا بقدره تماما .. فلا ثقافة لديه .. ولا سمعه له ولا سيرة .. فآثر سياسة التسامح مع الفرق المسيحية المتصارعة كلها ، وخص أسقف الاسكندرية بشيء من الاهتمام بعد ما عرفه عن صلابته ومواقفه مع الاباطرة الاسلاف .

ولم يكد أثناسيوس يصل الى الاسكندرية عائدا من حضرة جوفيان .. حتى كان قد سبقه الى المدينة نبأ وفاة الامبراطور .. والمناداة بفالنتينيان للعرش . ولما كان الامبراطور الجديد يدرك استحالة ادارة شئون الامبراطورية بمفرده، فقد رفع أخاه فالنز الى العرش .. امبراطورا شريكا ، وعهد اليه بحكم الشرق .. متخذا من القسطنطينية عاصمة له ، بينما آثر هو أن ينجو بنفسه من مهالك الشرق اللاهوتية ، ومن ثم سيطر على أقاليم الغرب .

واذا كان التعبير قد شاع بان الناس على دين ملوكهم .. فأن الحال قد اختلف عن ذلك تمـــاما فى هاتيك القرون ٠٠ اذ أضحى الملوك على دين ناسهم !

فالغرب الامبراطورى ظل على ولائه للايمـــان النيقى ، ولم يحاول مطلقا أن يعرض نفسه لمتاهات الجدال اللاهوتى ٠٠ والشرق أضـــحى الآن كله تحت السيادة الاريوسية ٠٠٠ عدا الاســـكندرية وبعض كنائس آسيا الصغرى ٠٠ ومن ثم تبـع أبناء قسطنطين عقيدة رعيتهم ، فكان قسطنطيوس آريوسيا ، بينما كان قسطنطين الثانى وقنسطانز على النيقية .. والآن وجد فالنز نفســـه يدين بالآريوسية ٠٠ على حين آوى اخوه فالنتينيان ٠٠٠ شأن ناسه فى الغرب الى النيقية ! والعجيب أن أحدا من هؤلاء الاباطرة جميعا لم يكن يدرى من امر اللاهوت المسيحى الذى يناصره قليلا ولا كثيرا واذا كان هناك امبراطور واحد قد شذ عن هـذه القاعدة .. وقضى العمر قرين الفكر .. فانه كان وثنيا ٠٠٠ أعنى جوليان ٠

ما أن استتب الامر لفالنز فى الشرق ، حتى أصدر أوامره سنة ٣٦٥ بنفى أثناسيـــوس ٠٠

وذهبت احتجاجات الجموع والاكليروس على قرار النفى سدى .. وحاول فالنز أن يتبع نفس الاسلوب الذى قام به من قبل قائد قسطنطيوس، بمهاجمة الكنيسة التى اعتاد الاسقف السكندرى أن يأوى اليها .. غير أن أثناسيوس كان قد علم مقدما بهذا الذى يحاك من حوله .. فغادر الاسكندرية بليل الى حيث مأواه الامين لدى الرهبان .. ليقضى فترة نفيه الخامس والاخير .

غير أن هذا النفى كان قصيرا .. اذ لم يلبث أثناسيوس أن عاد الى الاسكندرية بأمر الامبراطور، بل لقد أمر فالنز نائبه فى مصر أن يخرج لاستقبال الاسقف العائد على مشارف المدينة .. وأن يصحبه .. سائرا فى ركبه الى الكنيسة .

وقد يبدو هذا عجيبا .. ولكن الحقيقة سرعان ماتتضح اذا علمنا أن ثورة عارمة أشعلها القائد بروكوبيوس .. وأعلن نفسه امبراطورا منافسا ، وهدد سلطان فالنز .. ولولا خيانة قائدى بروكوبيوس لفقد فالنز عرشه .. المهم أن هذه الثورة كانت ذات أثر مباشر على أثناسيوس .. اذ أن الامبراطور خشى أن يحاول بروكوبيوس الاتصال بأثناسيوس ويحرضه على الثورة ضد فالنز ، أو

على الاقل يسعى لمنع وصول القمح والامدادات من مصر اليه .. وعاد بذاكرته الى ما فعله ماجننتيوس من قبل . وعلى الفور أصدر فالنز أوامره بعـــودة أثناسيوس واستقباله بما يليق من التقدير . لقد كانت مصر تمثل للامبراطورية أهمية اقتصادية قد لاتعدلها ولاية أخـــرى فى الامبراطورية .. وكان المتنافسون على العرش يدركون ذلك تمـــاما .. ويتركون أيضا أن أسقف الاسكندرية يســـتطيع بنفوذه لدى الرهبان وتأثير هؤلاء على جموع المصريين آنذاك .. أن يحققـــوا للامبراطورية فى موردهـــا الرئيسى .. والعاصمة بالذات .. هلاكا محققا .

وكان قد بقى لاثناسيوس من عمره بعد هـــذه الرحلة الطويلة سبع سنوات .. قضاها يشهد ثمار غرس وضع بذوره منذ تسع وثلاثين سنة .. يوم اعتلى عرش الاسقفية .. حتى اذا كان اليوم الثانى من مايو ٣٧٣ .. مات أسقف الاسكندرية الشهير .

والمتتبع لحياة أثناسيوس على هذا النحو .. وعلاقته بالاباطرة .. يرى ان الاتفـاق بين الجميع على طريق للقاء كان يعد مسألة عسيرة .

لقد كان أثناسيوس جريئا .. عنيدا .. صلبا لا يعرف لينا أو هوادة .. ذكيا طموحا .. يعرف

تماما قدر كنيسته فى عالم المسـيحية .. وقدر مدينته فى عالم الفكر والحضارة .. ويرتكز عـلى قاعدة صلبة يمثلها الرهبـان المصريون .. الذين اخلصوا له بكل الولاء .. وكان الاباطرة جميعـا يرون فى مصـر مركزا ممتازا .. عسـكريا واقتصاديا .. ويرون فى هذه الشعبية الجـارفة التى حازها أثناسيوس رمزا خطيرا لمنافس أشـد خطورة .. وكان الاباطرة بعامة يحسدون الاسقف السكندرى .. ويمقتونه . ولعل ما خلفـه لنا جريجورى اسقفا نازيانزا .. اللاهوتى الكبادوكى الشهير فى القرن الرابع .. والذى كان معـاصرا لاثناسيوس ، من وصف رائع للاستقبال الذى جرى لاثناسيوس عند عودته من نفيه الثانى سنة ٣٤٦ ، والمقارنة التى يعقدها لاستقبال حاكم مصر فيمـا بعد .. تكشف لنا حقا عما كان يخالج الاباطرة من شعور الكراهية لهذا الرجل .

حقيقة كان أثناسيوس متشددا فى بعض المواقف التى لاتحتمل هذا التشدد .. مصرا عـلى رأيه فى بعض الاحيان ، حتى تلك التى أعلن رفاقه من رجال الكنيسة الشهيرين مثل باسيليوس الكبير أسـقف قيسارية الكبادوك .. وغيره أنه بعيد فيهـا عن

الصواب . ولكن اثناسـيوس مع ذلك كان يمثل لكنيسة الاسكندرية مثالا فريدا لم تحظ بمثله أبدا طيلة تاريخها .

والذى لاشك فيه أن مصر .. برهبانهـا .. وشعب الكنيسة فيها .. وثقلهـا السـياسى والاقتصادى .. هى التى أعطت لأثناسيوس كل هذه الصلابة دفاعا عن مبدأ آمن به .. وعقيـدة أخلص لها .

الاسكندرية زعيمة الكنائس .. !!

يفضل ديوسقورس أن يذهب جميع الاساقفة الىالمنفى بسببه، ويدعى هذا القديس أنه يدافع عن العقيدة الحقـة .. ويعتبر نفسه فوق الله وفوق رسـل روما والقسطنطينية وأنطاكية وجميع الاسـاقفة الآخرين .. فاذا هزمت الاسـكندرية وقضى ديوسقورس نحبه .. فلن يظل العالم بلا أسقف .. » .

« أسقف سلوقية
فى القرن الخامس »

« ... طوبى لك ياسمعان بن يونا .. أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبوابه الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات . فكل ماتربطه على الارض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ماتحله على الارض يكون محلولا فى السماوات » .

هذا هو ما جاء فى حديث المسيح الى سمعان بطرس .. ذات مرة وهو يحاوره .. حسبما جرى به قلم متى فى انجيله .

وقدر لمدينة روما ان تكون لبطرس مستقرا ومقاما .. وهناك أقام بطرس قواعد الكنيسة المسيحية وركائز هذه الدعوة العقيدية الجديدة . وكانت روما عندما قدمها بطرس فى القرن الاول الميلادى عاصمة امبراطورية عريضة .. وحاضرة مجد الرومان . ولم تعترض آلهة البانثيون الرومانى على مقدم الاله الجديد الى روما ، فقد اتصفت أرباب الرومان بالتسامح مع الارباب الرفاق القادمة من الشرق .. وان كانت هذه الارباب قد بدأت تشعر بمرور الزمن ، ان ديانات الشرق وعقائده قد بدأت تزاحمها وتستولى على قلوب عبادها .. وضايقها ان انصرفت عنها أفئدة الجموع .. خاصة فى أوقات المحن العديدة التى عرضت للامبراطورية

ومن ثم أوحت الى أباطرة الوثنية بين الحين والحين باعادة هؤلاء المارقين الى صفوف الساعين الى مذابحها ليقدموا لها القرابين ارضاء ! .

واذا كان أباطرة الرومان عباد الوثن قد سببوا الكثير من العنت لاساقفة روما .. الا أن هؤلاء الاباطرة قد أسدوا في الوقت ذاته لكرسي روما ، عن غير قصد ، معروفا ذا بال .. اذا أنهم راحوا يهجرون روما الى عواصم أخرى .. فأقام دقلديانوس في نيقوميديا .. بينما بنى قسطنطين ، على أطلال المدينة الاغريقية القديمة بيزنطة ، مدينة جديدة دعاها «روما الجديدة» وأبت هي الا أن تحمل اسم مؤسسها فعرفت بالقسطنطينية . وحتى قبل ذلك .. فقد دفعت ظروف الاعتداءات الجرمانية على جبهة الدانوب .. والفارسية على الفرات ، الاباطرة الى هجران روما الى ميادين القتال . وهكذا وجد أساقفة روما أنفسهم وحيدين في مدينة كهذه .. فراحوا يمارسون سيادتهم الروحية دون أدنى قلق .. الى الحد الذى اتسعت فيه هذه السيادة لتشمل فيما بعد النواحي السياسية .. بل والعسكرية مع بدايات القرن الخامس ، وانطلاقا من هذا الواقع .. واستنادا الى ما جاء في حديث المسيح الى بطرس .. اعتبر اساقفة روما كرسيهم

الاسقفى رأس الكنيسة الكاثوليكية . بوصـــــفه كرسيا رسوليا لبطــرس ، الذى دعى فى الوقت ذاته أمير الرسل .

وعلى الطرف الجنوبى للبحر المتوسط .. كان مرقس الانجيلى قد قدم الاسكندرية هو الآخر يحمل بشارته .. ولم يكن مرقس من بين حواريى المسيح الاثنى عشر .. أو بتعبير آخر .. لم يكن واحدا من الاثنى عشر رسولا .. ولكنه كان قريبـــا الى بطرس ، محببا اليه ، شاركه رحلتـــه الى روما ، وكتب انجيله بناء على « رغبة الاخوة الرومان » .. ثم اتخذ طريقه فى البحر الى ليبيا ومنهـــا قدم الاسكندرية . ونقف على هذا كله من رســـالة بطرس الاولى وما كتبه يوساب القيسارى شـــيخ مؤرخى الكنيسة .. وجيروم .

واذا كانت كنيسة الاسكندرية قد افتقـــدت المرتبة الرسولية ، فقد اعتمد اساقفتها فى تعويض ذلك على ماذهبت به شهرة الاسكندرية فى العــالم الهللنستى فى الفكر والثقافة .. ولانها كانت كذلك فقد أخرجت الى المسيحية آباءها الاول فى اللاهوت المسيحى . وبماض مجيد قديم .. كانت تعيشــه الاسكندرية عاصمة امبراطورية ، وبالفكر والفلسفة

وبانجيل مرقس •• وبآباء اللاهوت المسيحى •••
أيقنت كنيسة الاسكندرية أنها تقف على درجـــة
واحدة الى جوار الكرسى الرومانى •• بل تفوقه
فكرا ومعرفة •

وهناك •• وعلى الساحل الشرقى للمتوسط ••
كانت تقوم مدينة أنطاكية •• ولها مالها من سمعة
عريضة •• وحضارة • ولكنها الآن تفخر على روما
والاسكندرية بأن أمير الرسل بطرس هو الذى وضع
أسس كنيستها قبل ان يرتحل الى روما، وأنه قضى
فى أنطاكية سبع سنوات مابين عامى ٣٤ ، ٤١ ••
ويخبرنا بهذه الحقيقة صراحة يوساب القيسارى فى
تاريخه الكنسى •

وفى عام ٣٢٥ •• وفى قانونه السـادس ••
اعترف مجمع نيقية بسمو الكراسى الثلاثة ، روما
والاسكندرية وأنطاكية على قدم المساواة • وقرت
بذلك عيون هذه الاسقفيات ، غير انه فى عام ٣٣٠
برزت الى الوجود مدينة جديدة هى القسطنطينية،
وحاولت كنيستها أن تجد لها مكانا على سلم الزعامة
فوق الدرج الذى ارتقت اليه هاتيك اللـدات ••
ولما راحت تفتش عن ماض تبـاهى به •• أرتد
اليها البصر خاسئا وهو حسير •• انهـا لاتزال

تحبو فى عامها السادس .. اذ رفع القواعد منهـا قسطنطين عام ٣٢٤ فقط . ولكنها لم تعدم فى ذلك وسيلة . فأذاعت أنها وحدها الجديرة بالسمو .. فقد نشأت منذ اليوم الاول لها مسيحيـة .. ولم تعفر جبهتها لوثن .. ولم تسع الى مذبح معبـد لتحرق أمام الارباب بخورا أو تقدم قربانا .. فى الوقت الذى عاشت فيه قريناتها الثلاث قرونا من عمرهاطويلة تقدس الآلهة . وأضافت القسطنطينية الى ذلك انها أضحت الآن مستقر الاباطرة وعاصمة الامبراطورية .. وماهاتيك الا مجرد حواضر ولايات تسعى فى فلكها .

ولاشك أنه آلم القسطنطينية أن كنيسـتها لم تحظ بأحد من الرسل الاثنى عشر أو التلاميـذ ، ومن ثم راحت تبحث فى سجلات الرسـل حتى اهتدت الى أن القديس أندراوس .. الذى أخـذ بيد أخيه سمعان (بطرس) الى المسـيح .. وله فضل السبق فى الايمان ، حسب رواية انجيـل يوحنا ، هو الذى اسس كنيسة بيزنطة ، المدينـة التى على أطلالها شيدت القسطنطينية . وبهـذا أفسحت الكنيسـة الجديدة لنفسها مكانا بين كنائس روما والاسكندرية وانطاكية .. بل علت فى نفسها عليهن جميعا .

وحتى نهاية القرن الرابع الميلادى كانت هذه الكنائس جميعها تتحسس على وجل طريقها الى الزعامة في عالم المسيحية ٠٠ وكان الدفاع عن العقيدة والايمان الحق هو الحجة التى تذرعت بها كل منها لترقى على حساب الاخريات درجات . فلما كان القرن الخامس .. اندلع النزاع بينها سافرا بلا حياء من اجل احراز السيادة العالمية كنسيا ، وكانت طبيعة المسيح ٠٠ بشر هو أم اله ٠٠ المعركة التى اقتتل فيها ومن حولها الجميع ٠٠ متخذين منها ستارا يحجب هوى النفس ٠٠ !

وزاد من ضراوة هذا القتال أن المجمع المسكونى الثانى الذى عقد فى القسطنطينية عام ٣٨١ ، نص فى قانونه الثالث على أن « أسقف القسطنطينية له التقدم فى الكرامة بعد أسقف روما ٠٠ لان القسطنطينية روما الجديدة » ٠ وكان لابد ان يبلغ الحنق بالاسكندرية وانطاكية مداه .. حيث هبطت كل منهما درجة !

ويخبرنا سقراط فىتاريخه الكنسى أنثيوفيلوس أسقف الاسكندرية أبدى امتعاضه الكامل لهذا القانون ٠٠ ولذلك انتهز فرصة خلو كرسى القسطنطينية سنة ٣٩٨ بوفاة نكتاريوس ، واراد اختيار احد رهبانه الطيعين اسقفا للعاصمة الامبراطورية ، حتى تكون له بالتالى السيادة غير

المباشرة، ولكن الدوائر السياسية فى القسطنطينية كانت قد سبقته الى العمل ٠٠ واختارت للاسقفية رجل انطاكية الورع ٠٠٠ واللاهوتى الشهير يوحنا ذهبى الفم ٠٠ بل ودعى ثيوفيلوس ليشترك فى رسامة الاسقف الجديد ٠٠ ٠ مما زاد الاسى فى نفس الاسقف السكندرى ، الى الحد الذى دفعه الى التصريح بعدم رضائه عن هذه السيامة ٠٠ ولكنه لم يملك أمام اصرار دوائر القصر الامبراطورى الا الاذعان ٠

وقد بات ثيوفيلوس يتحين الفرصة المواتية لرد الاعتبار الى كرسيه ، الذى احتلت أسقفية القسطنطينية مكانة ٠٠٠ وجاءته هذه الفرصة تسعى عندما هرب عدد كبير من الرهبان المصريين الى القسطنطينية ، وقدموا شكواهم الى يوحنا ذهبى الفم أسقف المدينة ، ضمنوها أن ثيوفيلوس قد استولى على بعض أملاك الاديرة وأموالها بعد أن امتلأ قلبه بالجشع ٠ فكتب يوحنا الى ثيوفيلوس يخبره بحقيقة الامر ويطلب اليه الصفح عن هؤلاء أو يفوضه ببحث ظلامتهم ٠ ولكن الاسقف السكندرى اتهم الفارين بالخروج على ايمان الكنيسة ، ووضعهم فى عداد الهراطقة ، ثم انحى باللائمة على أسقف العاصمة الذى سمح لنفسه بالنظر فى

قضية ليست من اختصاص كنيسته مخالفا بذلك قوانين المجمع النيقي . وعلى الفور تقدم الرهبان بشكواهم الى الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨) الذى أمر على الفور باستدعاء ثيوفيلوس ، فارتحل هذا الى القسطنطينية وبصحبته عدد ضخم من رجال الاكليروسه .. وهناك تمسكن كذلك من أن يضم الى صفه نفرا كبيرا من رجالات الكنيسة الساخطين على ذهبى الفم . وكان يوحنا قد أثار عليه طائفة كبيرة من الاكليروس بسبب زهده وتقواه ومحاولته العودة بالمسيحية الى بساطتها الاولى ، وشن حربا عنيفة على الترف والبذخ الذى يرفل فيه رجال الدين المسيحيون حتى غدوا ينافسون الامراء فى ذلك ، وأحست الامبراطورة يودوكسيا بأن لسان يوحنا قد يمتد ايضا الى سرف القصر ، وأقنعت نفسها بذلك عندما أدخل فى روعها بعض خاصتها الناقمين على الأسقف أن يوحنا قد عناها فعلا فى احدى عظاته .. ومن ثم فقد انضمت هى الاخرى الى فريق الحانقين . وزاد من حنقها ذلك الاشمئزاز الذى أبداه الاسقف عندما أقام لها زوجها الامبراطور أركاديوس تمثالا من الفضة فى أضخم ميادين العاصمة قبالة الكنيسة ، ودشن ذلك فى حفل كبير شهد أنواع المجون والعبث ..

ودون الدخول فى التفاصيل الدقيقة للاحداث، فقد ارتد ثيوفيلوس الى خليفيدونية على الشاطىء الاسيوى للبسفور وعقد مجمعا دينيا أصدر قراراته بعزل يوحنا ذهبى الفم عام ٤٠٣ وصدق الامبراطور بتأثير يودوكسيا ، على القرار . غير أن العاصمة أرغمت الامبراطورة على التراجع عن قرارها ، وكاد الامر يتحول الى غير صالح ثيوفيلوس ، فركب البحر عائدا الى الاسكندرية . ولكنه مالبث أن استغل حادثة تمثال الامبراطورة ، وما أشيع من اتهامات حول يوحنا ، وأفتى بوجوب عزله .. وعليه .. اجتمع فى القسطنطينية جماعة من خصوم ذهبى الفم سنة ٤٠٤ واستندوا الى فتوى ثيوفيلوس وأصدروا قرارهم بعزله .. ولم يلبث الامبراطور أن أرسل الى الاسقف من قبض عليه وساقه الى المنفى .

وكان من الطبيعى أن تقف انطاكية الى جوار رجلها أسقف القسطنطينية من ناحية .. وحقدا على الاسكندرية من ناحية أخرى .. غير أن فلافيانوس الاسقف الانطاكى مات بعد القبض على يوحنا بأيام قلائل ، وأعلن خلفه الموالى للبلاط تأييده لعزل ذهبى الفم . أما روما فقد وقفت هذه المرة فى صف يوحنا ضد تعالى أسقف الاسكندرية .

غير أن عزل ذهبى الفمونفيه يعد انتصارا لاسقفية الاسكندرية ٠٠ وبالتالى الخطوة الاولى فى سـبيل الزعامة على الكنائس فى القرن الخامس الميلادى ٠ وتاكد ذلك بصورة عملية عندما صـدرت الاوامر الامبراطورية بوجوب الاعتراف بسلطة ثيوفيلوس فى الاسكندرية ٠

واذا كان النزاع بين الكنائس هـذه المرة قد وقع من جراء مسائل تخص التنظيم الكنسى ٠٠ فان ما حدث بعد ذلك على امتداد نصف قرن جعل من طبيعة المسيح مسرحا لعملياته ٠٠ وسـترا لاهدافه ٠

ذلك أنه فى عام ٤٢٨ ٠٠ اعتلى عرش أسقفية القسطنطينية شخص يدعى نسطوريوس ٠٠ كان أحد تلامذة المدرسة العقلانية الانطاكيـة ، التى تخرج فيها من قبل القس السكندرى آريوس ٠٠ وكانت هذه المدرسة تفصل بين اللاهوت والناسوت فى شخص المسيح ، وترفض القول باتحـاد الطبيعتين الالهيـة والبشرية ٠٠ وهى فى الوقت ذاته تبرز الطبيعة البشرية ٠ وتنادى بوجـوب كمال هذه الطبيعة ٠ وان كان هـذا لايعنى فى الوقت ذاته انكار اللاهوت فى المسيح ٠

وقد أمعن نسطوريوس الفكر فى مسألة تجسد الكلمة ، وعاد الى قانون الايمان النيقى ، قاعدة الايمان الارثوذكسي للكنيسة الجامعة ، فوجده يقول : « ان ابن الله تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء » .. وقال نسطوريوس .. انه لما كانت العذراء بشرا .. والبشر لايمكن أن تلد الها أصبح من البدهى شجب القول بأن العذراء « والدة الاله » ، حيث ان هذا المصطلح لم يرد مطلقا فى الكتاب المقدس ، ولم يستخدمه اباء المجمع النيقى .. كما أن هذا القول يعد ، حسب تعبير نسطوريوس ، خلطا بين اللاهوت والناسوت . ومن ثم أعلن الاسقف قراره بحرمان ولعن كل من لايقول بأن مريم « أم المسيح » البشر وليست « أم الاله » ..

ارتاعت القسطنطينية لدى سماعها بهذه الانباء .. وأدركت الخطر يأتيها من أسقفها الجديد ، الذى أراد أن يحرم المدينة فخار حاميتها ، أم الرب .. فقد اتخذت العاصمة لها منذ قيامها ، العذراء حامية لها .. على غرار روما وأثينا فى عهدهما الوثنى . ومن ثم ترددت فى جنبات العاصمة أصداء الهياج الذى أحدثته الرعية . ولكن نسطوريوس ما كان ليأبه بثغاء قطعان العامة ..

فسلط عليهم غضب الامبراطور الذى ساقهم قسرا الى الهدوء ، بعد أن خاطبه الاسقف قائلا : « أعطني الارض وقد تطهرت من المارقين ٠٠ أمنحك نعيم الجنة المقيم » !! أما الاكليروس الذى امتعض لآراء نسطوريوس ، فقد لقى الحرمان الكنسى على يد مجمع عقد فى القسطنطينية سنة ٤٢٩ قطع كل من يقول بغير « العذراء أم المسيح » ٠

عبرت آراء نسطوريوس البحر الى الاسكندرية وتلقفها أسقف الاسكندرية الجديد كيرلس بالازدراء والغضب ٠٠ وكان كيرلس قد ورث عن خاله الراحل ثيوفيلوس حقده على القسطنطينية لتقدمها فى المرتبة الكنسية على الاسكندرية بقرار المجمع المسكونى الثانى ٠٠ يضاف الى ذلك أن الاسكندرية كانت تؤمن حتى ذلك الوقت بكمال الطبيعتين فى المسيح ، ويعلق الدكتور أسد رستم ، فى كتابه عن كنيسة أنطاكية ، على ذلك بقوله : « اذا كان الحاسد يغتاظ على من لا ذنب له ٠٠ فكيف به والذنب خروج على الدين القويم»؟

وقد عد أسقف الاسكندرية قول نسطوريوس بدعة وهرطقة ، وبدأ بالتالى التراشق بالرسائل المعادية بين الكنائس الاربع الكبرى فى محاولة

من كل فريق لكسب الانصار الى جانبه ·· وفى الوقت الذى كان نسطوريوس يفخر بسيادته على كرسى العاصمة الاسقفى ، والمدينة التى نشأت مسيحية ، وسجل سموها قرار مجمع مسكونى · كان كيرلس يزهو بمدينته ·· مركز الفكر والثقافة وموطن آباء اللاهوت المسيحى ، ويسعى جاهدا كى يكمل طريق الزعامة الذى قفز الى الدرك الأول منه خاله وسلفه ثيوفيلوس · والآن ·· وقفت انطاكية تؤيد ابن مدرستها نسطوريوس ، بينما انحازت روما هذه المرة الى جانب الاسكندرية بعد أن أحست خطورة انتصار أسقف روما الجديدة المنافسة · وعليه ·· فما ان تلقى أسقف روما رسالة من كيرلس السكندرى يفند فيها آراء نسطوريوس ، ويطلب اليه أن يعلن الرأى صراحة في هذا الخصوص ·· حتى استهوته النغمة التى خاطبه بها الاسقف السكندرى ·· وعدها اعلاء لشأنه · وقبل أن تتجلى له حقيقة الامر ودون أن يفهم القضية فى اللاهوت ...دعا أساقفة ذماره الى مجمع عقد سنة ٤٣٠ فى روما أعلن ادانة نسطوريوس ، وكتب الى كيرلس يفوضه فى عزل نسطوريوس اذا لم يعد الى الايمان الحق خلال عشرة أيام ·

هكذا انقسمت الكنيسة على نفسها تحت دعوى العقيدة ... وبهدف تحقيق نوع من السيادة تتصارع عليه الاسقفيات الكبيرة .. ووقفت روما والاسكندرية فى جانب .. بينما اتخذت انطاكية والقسطنطينية جانبا آخر .

وحسما لهذا الخلاف .. رأى الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ ــ ٤٥٠) أن يدعو لعقد مجمع كنسى .. واختيرت مدينة افسوس (فى آسيا الصغرى) مقرا . وكان كيرلس السكندرى أسبق الاساقفة وصولا الى مكان المجمع ، يحف به خمسون من مؤيديه من رجال الاكليروس المصرى والرهبان .. وعلى الفور آخذ بيده زمام المبادأة ، فلم ينتظر وصول بقية الوفود الاخرى من روما وانطاكية ، فعقد لتوه المجمع .. وانضم اليه ممنون أسقف مدينة المجمع نكاية فى نسطوريوس الذى أراد التدخل فى شئون كنيسته .. وقاد من ورائه جموع أساقفة آسيا لنفس السبب .. ومضت أيام خمسة .. وفجأة الجميع حضور جوفناليوس أسقف أورشليم ، عرفه الجميع مداورا أثيما ، جاء وقد أثقلت رأسه فكرة أن ينخلع بأبروشيات فلسطين عن سيادة أنطاكية .. ولم لاينافس هو الآخر على الزعامة ؟ .

أليس لكنيسة أورشليم الحق فى أن تعلو على كل هذه الكنائس ؟ أليس المسيح نفسه هو الذى وضع اللبنة الاولى فيها ؟ ومن ثم فانه لما كان يوحنـــا الانطاكى •• خصمه اللدود •• يؤيد نسطوريوس فقد اتخذ هو ، دون الوقوف على طبيعة الجدال ، جانب كيرلس !

وكان كيرلس قد ضمن ايمانه وعقيدة كنيسته فى اثنى عشر بندا ، وقرن كل واحد من هــــذه البنود باللعنة والحرم الكنسى على كل من يعـــلم بغير ما يعلم .. فدعا الحضور وهم رجـــاله .. وأساقفة افسوس وآسيا وأورشليم وفلســطين للتصديق على قانون ايمانه •• ودعا نسطوريوس كذلك لتبرير دعوته حول العـــذراء •• غير أن أسقف القسطنطينية رفض حضور المجمــع الذى يسيطر عليه كيرلس ويضم كل خصومه ، وطلب الانتظار حتى يصل الوفدان الانطاكى والرومانى • غير أن الاسقف السكندرى لم يمهله •• فاتخذ من امتناعه عن حضور المجمع تكأة واصدر المؤتمرون قرارهم بادانة نسطوريوس وعزله سنة ٤٣١ •

ولم يلبث يوحنا الانطاكى وأساقفة سوريا أن وصلوا الى افسوس •• وعقدوا مجمعا منفصلا مع

نسطوريوس ٠٠ وأعلن الجميع قوامه ايمان اسقف القسطنطينية ٠٠ وادانة كيرلس وممنون، وكان اخوة روما قد حطوا الآن رحالهم فى المدينة وأعلنوا تأييدهم للاسكندرية وأسقفها ٠٠ والكل يؤمن أنه عن الحق المبين يدافع ٠٠ وأن ما عليه الخصوم افك وضلال !

أعيا خلاف الرأى هذا الامبراطور ٠٠ ورأى من الانصاف أن يصدر أوامره بعزل رءوس النزاع . نسطوريوس وكيرلس وممنون ٠٠ ففعل ٠ ولعن كل مارق عن الايمان النيقى ٠ غير أن الاسقف السكندرى ما كان بالذى يستكين لهذه الهزيمة الطارئة ٠٠ فعمد الى وسائله الخاصة لدى القصر حتى استطاع فى النهاية أن يستصدر من الامبراطور قرارا باعادته وممنون الى اسقفيتيهما ٠٠ أما نسطوريوس فقد تولى الى الظل فى ديره الذى جاء منه أصلا فى أنطاكية ٠٠ غير أن خصومه أرادوا الخلاص منه تماما ٠٠ فأصدر ثيودوسيوس الثانى أوامره بنفيه الى البتراء أولا ثم نقله بعد ذلك الى اخميم فى صعيد مصر ، ولازال قبره هناك يعرف بتل نسطور ٠

هكذا كان مجمع افسوس سنة ٤٣١ وما نجم

عنه من نفى نسطوريوس .. وما تبع ذلك سنة ٤٣٥ من صدور المرسوم الامبراطورى باعتبار آراء نسطور محض هرطقة وضلال .. نصرا كبيرا لكيرلس وكنيسة الاسكندرية ، وعلا شأن الكنيسة السكندرية بذلك فى آفاق العالم المسيحى خاصة وأن أسقفها أفلح فى ادانة وعزل أسقف العاصمة الامبراطورية .

وتخبرنا المصادر التاريخية أن كيرلس هيىء له بهذا النصر أنه أصبح السيد الاعلى فى مصر حتى على السلطة المدنية نفسها .. ونقول هذه المصادر أنه راح يتدخل فى شئون موظفى الادارة الامبراطورية فى مصر ، يصدر اليهم أوامره ويوجب عليهم طاعته .. بل انه على حد قول أحد المؤرخين كان يتطلع الى زعامة الكنيسة الشرقية بعامة . وعلى هذا النحو حققت الاسكندرية نصرا باهرا على القسطنطينية فى جولة من جولات السباق المرير للحصول على كرسى الزعامة الاسقفية .

ولكن .. ترى هل تقبل القسطنطينية بهذه الهزيمة ؟

ان نظرتها الى الاسكندرية هى نظرة السيد الى

تابعه .. فهى أسقفية العاصمة .. ومستقر الاباطرة .. ويجب أن تتبعها الكنائس الاخرى ، ولم تنس القسطنطينية مطلقا أنها لازالت فى طور الطفولة الاسقفى .. ومن هنا كان حقدها على الاسكندرية أشد وأقسى . وروما .. وقد وقفت الى جوار الاسكندرية هذه المرة لتذل كبرياء القسطنطينية التى فرضت نفسها على الكراسى الرسولية بموجب قانون مجمعى .. أتراها تسلم للاسكندرية بهذه الزعامة دواما ؟!

ولكن الاسكندرية .. بماضيها .. وفكرها .. وآباء كنيستها .. ورغم حقد القسطنطينية .. وتخوف روما .. واصلت انتصاراتها .. وحققت فى الجولة الثالثة الزعامة الكنسية بلا منافس .

ذلك ان راهبا ظهر فى القسطنطينية يدعى يوطيخا .. اعتنق مبادىء الايمان الكيرللى .. ولكنه تطرف بها الى الجانب المضاد للآراء النسطورية فقال ان الطبيعة البشرية فى المسيح تلاشت فى الطبيعة الالهية .. أو بمعنى آخر .. ابتلعت الطبيعة الالهية الطبيعة البشرية ، وشبه ذلك بقطرة الخمر التى وقعت فى بحر ماء .. ومن ثم غدا المسيح عنده صاحب طبيعة واحدة فقط هى الطبيعة الالهية !

ولما شاعت هذه الآراء في الاوساط الكنسية .. اضطرب الاساقفة وانقسموا بين مؤيد ومعارض . وتشاكى الخصوم الى فلافيان أسقف القسطنطينية ليوضح رأيه في العقيدة الجديدة التي ينادى بها يوطيخا . غير أن فلافيان كان يعلم تماما منزلة راهب القسطنطينية لدى الامبراطور ، ومن ثم خشي على منصبه ، فجمع كل ملفات القضية وبعث بها الى أسقف روما .. وتشاكى يوطيخا كذلك اليه .. ومال الاسقف الروماني الى ادانة يوطيخا وآرائه . وفى عام ٤٤٨ تم عقد مجمع دينى فى القسطنطينية برئاسة فلافيانوس أصدر قراراته بادانة يوطيخا واعتباره هرطوقيا .

ولكن راهب القسطنطينية .. اعتمادا على صداقة الامبراطور ، ومودة خصى القصر خريسافيوس .. هز كتفيه غير عابىء بهذا القرار وكتب خريسافيوس الى ديوسقورس ، أسقف الاسكندرية الذي خلف كيرلس ، يسأله التأييد . وانطلاقا من عقدة الخوف من الآريوسية التى كانت كامنة فى نفوس الاساقفة السكندريين ، رأى ديوسقورس فى آراء يوطيخا دحضا كاملا لعقيدة آريوس .. فهذا ينادى بخلق المسيح ويبرز الناسوت فيه ، ويرفض ماتؤمن به الكنيسة من

القول بأن « الابن مساو للآب فى الجوهر » وذاك وهو يوطيخا يؤكد الطبيعة اللاهوتية فى المسيح ، ومن ثم لم يتردد الاسقف السكندرى فى تأييد يوطيخا . وان كانت المصادر الارثوذكسية تذكر أن ديوسقورس لم يؤيد يوطيخا الا بعد أن أعلن هذا الاخير تخليه عن آرائه فى الطبيعة الواحدة ، والالتحام باراء كيرلس السكندرى فى هذه القضية .

وعندما أيقن الامبراطور أن الاسكندرية تؤيد راهبه الاثير ، دعا الى عقد مجمع كنسى فى مدينة افسوس سنة ٤٤٩ وأعلن أن رئاسة المجمع قد اسندت الى ديوسقورس .

وعلى الفور ارتحل الاسقف السكندرى الى افسوس وبصحبته عدد كبير من الاكليروس المصرى، وتقاطر على المدينة مائة وثلاثون أسقفا ، التقى جمعهم تحت رعاية اسقف الاسكندرية .. وطلب الى يوطيخا الادلاء بآرائه أمام المجمع .. فارتضتها الاغلبية التى تؤيد ديوسقورس .. واعترض نفر على رأسهم بالطبع فلافيان .. وجرت المناقشات فى المجمع على نحو ما يجرى فى بعض المجالس النيابية فى عصرنا الحالى .. من استخدام الايدى والمقاعد فى حل المشاكل !

وصدرت قرارات المجمع فى النهاية ، بعد أن استخدم ديوسقورس الجنـــود لاعادة الهـــدوء واسكات المعارضين ، وأعلن تبرئة يوطيخا واعتباره رجلا قويم الايمان ٠٠ أما فلافيان فقد تمت ادانته وأوسعه الجمع ضربا ثم طرح أرضا ليمر من فوقه الحضور ، حسبما يروى المؤرخون ٠٠ ولم يلبث الرجل أن مات فى اليوم الثالث !

على هــذا النحو بدا للجميــع أن أســقفية الاسكندرية قد حازت النصر فى معركة المسيح ٠ وكانت الكريستولوجية هدفا ثار من حــوله رنين الكنائس والضجيج ٠ وقدر لكنيسة الاسكندرية أن تنال الزعامة الكنسية ٠٠ ولو الى حين ، ذلك أن الامبراطور الدين ثيودوســيوس الثانى ٠٠ نصير الاسكندرية ٠٠ لن يلبث أن يموت طواعية فى العام التالى (٤٥٠) ٠٠ وأن يلحق به غيلـة خصبيه خريسافيوس ٠٠ وأن تعود القضــية من جديد تطرح ٠٠ وتؤجج بين الكنائس ثانية حربا قاسمة .. قاصمة طويلة وطويلة !

لقد كلمت القســطنطينية الآن ثلاث مرات ٠٠ وعلى يد من ٠٠ أسقفية واحدة من ولاياتهــا ٠٠ لقد كانت القسطنطينية دائمــا تعــوض حداثة ماضيها بسلطانها السياسى ٠٠ اذ تقف قزما أمام

الاسكندرية وروما • وكان لابد أن تجرع الاسكندرية بعضا مما سقتها اياه •

وروما •• يأكل الحقد قلبها وهي ترى نجم الثغر المصرى الى صعود •• حقا لقد وقفت الى جانبها زمن كيرلس لتذل كبرياء سميتها الجديدة، أما وقد تحقق لها هذا فلتقف الآن فى وجه هذا السمو السكندرى • وزاد من غضبها أن ديوسقورس تجاهل تماما أثناء ترأسه لمجمع افسوس الثانى •• رسالة العقيدة التى كان قد بعث بها الى المجمع الاسقف الرومانى ليو الاول • وهى الرسالة التى أعلنت كمال الطبيعتين فى المسيح ! ولهذا رفضت كنيسة روما الموافقة على قرارات مجمع افسوس الثانى وأطلقت عليه اسم « مجمع اللصوص » الذين سرقوا الايمان فى غفلة من أصحابه •• !

والامبراطور الجديد مارقيان •• جندى فظ •• لايدرى من أمر اللاهوت الا مظهر الصراع فيه • حائر بين هذه الفرق المتنافرة التى باعدت بين المسيحيين وأنفسهم •• وبين الرغبة فى احلال السلام فى الكنيسة •• وبالتالى الامبراطورية •• فالشرق يقف الآن وراء الاسكندرية •• والغرب

كله يعضد روما ٠٠ والقسطنطينية ترقب الجولة القادمة عن كثب ٠

واذا ما تدخل العامل السياسى فى شىء من هذا القبيل ٠٠ ازدادت المشكلة تعقيدا وأضحت العقيدة تسير فى ركاب الساسة لاهثة ٠

كانت المشكلة الكريستولوجية التى مات ثيودوسيوس الثانى دون أن يضع حلا لها، تشغل ذهن الامبراطور مارقيان ٠ ولكن يبدو أن وقع خطاه فى علاجها كان محسوبا بارادة زوجه العذراء بولكيريا محوطا باعتبارات دبلوماسية غاية فى الاهمية ٠ فالامبراطور غريب عن الاسرة الثيودوسية، ومن ثم انتسب اليها بهذا الزواج السياسى فقط من بولكيريا أخت الامبراطور الراحل ٠٠ وهو يتلهف شوقا ليحظى بموافقة زميله امبراطور الغرب على اختياره ٠٠ اذ انه ابن عم ثيودوسيوس الثانى ٠٠ والوريث الشرعى له ٠ والاسقف الرومانى ليو ٠٠ هو صاحب النفوذ فى بلاط الغرب ٠ وكان على مارقيان اذا ما أراد تأمين عرشه أن ينال رضى أسقف روما ٠

على هذه الصورة من التشابك والتعقيد بدت المشكلة ٠٠

وفى عام ٤٥١ استجاب مارقيان لنداء ليـــو ودعا الى عقد مجمع مسكونى .. التأم عقده فى مدينة خلقيدونية على الشاطىء الآسيوى للبسفور فحقق بذلك نصف الطريق الى مودة البابا .. ذلك ان ليو كان قد أشار بعقد هذا المجمع فى ايطاليا حتى يتسنى له رئاسة رجالات الكنيسة جميعا فى الشرق والغرب .. غير أن الامبراطور فوت عليـه الفرصة ، وصم آذانه عن كل احتجاجاته التى أعلنت عدم جدوى عقد مثل هذا المجمع مادامت هناك قاعدة للايمان الحق تتمثل فى رسالة ليو الى مجمع افسوس .. وان كان ليو قد شارك فى المجمع بأسقفين وقسين .

وجريا على سنة قسـطنطين الكبير .. ترأس نواب الامبراطور المجمع .. ولم يعقد لواء الزعامة فيه لاى من الاساقفة .. وقد بدا واضحا للوهلة الاولى فى أول جلسة عقدها المجمع أن الهـدف الاساسى لايكمن فى البحث عن صيغة مستقرة للايمان ـ بقدر كونه اذلالا لكبرياء كنيسـة الاسكندرية بعد هذه الانتصارات التى حققتها على الكراسى الاسقفية الاخرى فى روما وأنطاكية .. والقسطنطينية من قبل ومن بعد . وقد ظهر ذلك

فى الكلمة التى ألقاها رئيس وفد روما فى المجمع عندما طالب بنبذ الاسقف السكندرى من بين صفوف الاساقفة الآخرين ووجوب وقوفه أمام المجمع موقف المتهم . وخصصت الجلسة الثالثة لمحاكمة ديوسقورس ، ولكنه رفض المثول أمام المجمع .. فانتهز المؤتمرون الفرصة لادانته واصدار قرار بعزله .. وصدق الامبراطور على ذلك بنفيه .

لقد كان مجمع خلقيدونية صفعة قوية وجهت الى كنيسة الاسكندرية .. أرادتها روما .. وانتظرتها طويلا القسطنطينية . وهللت لها أنطاكية .. هكذا .. وعلى حساب الاسكندرية تلاقت روما القديمة .. وروما الجديدة تنشدان مزمور النصر على الكرسى السكندرى .. وان كان هذا التزاوج بين المدينتين لن يلبث أن ينتهى الى انفصال دائم .

غير ان الاسكندرية لم تقبل هذه الهزيمة فأعلنت تخليها عن استخدام اللغة اليونانية لسان الفكر والثقافة والعقيدة فى الشرق ، والتحول عنها الى اللغة القبطية .

وكان هذا الاجراء فى حد ذاته تحديا صريحا

لكل الخصوم ٠٠ وأعطى لمصر فى عصرها المسيحى صبغة وطنية ٠٠ كان لها أكبر الاثار فيما بعد على العلاقات السياسية بين مصر والامبراطورية فى أوائل القرن السابع الميلادى ٠٠ وبدأت مصر منذ ذلك الحين ٠٠ أعنى منتصف القرن الخامس ٠٠ تشق لنفسها طريقا مستقلا ٠٠ عقيديا ولسانا ٠

وظلت الكنيسة السكندرية على ولائها للعقيدة التىأقرها ديوسقورسوهى القائمةعلى أبراز الطبيعة اللاهوتية فى المسيح أو كما آمن كيرلس ٠٠ طبيعة واحدة من طبيعتين وقد عرف المسيحيون فى مصر بناء على ذلك بأصحاب الطبيعة الواحدة أو المونوفيزيين ٠

أما الايمانالذى انتهى اليه المجمع ، فقدشكلت لجنة من الاساقفة للبحث عن صيغة ملائمة ، وكان على اللجنة أن تصغى الى وجهة نظر الامبراطور السياسية فى هذا الشأن ٠٠ فعلى الرغم من أنه نفى ديوسقورس ، الا أنه كان يريد أن يحتفظ فى الوقت ذاته بولاء الكنيسة السكندرية ٠٠ وأصدرت اللجنة فى النهاية قرارها بأن الايمان الحق يكمن فى تعاليم كيرلس السكندرى وليو الرومانى ، ومن ثم جاء مرسومالايمان الخلقيدونى على هذا النحو :

« نعترف بابن واحد هو نفسه ربنا يســـوع المسيح ، وهو نفسه كامل بحسب اللاهوت وهــو نفسه كامل بحســب الناســوت • اله حقيقى وانسان حقيقى • وهو نفســـه من نفس واحدة وجسد • مساو للآب فى جوهر اللاهوت • وهو نفسه مساو لنا فى جوهر الناسوت ، مماثل لنــا فى كل شىء ماعدا الخطيئة . مولود من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت • وهو نفسه فى آخــر الايام مولود من مريم العذراء والدة الاله بحســب الناسوت لاجلنا وأجل خلاصنا • ومعروف هــو نفســه مسيحا وابنا وربا ووحيدا واحدا بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصــال من غير أن ينفى فرق الطبائع بسبب الاتحــاد بل ان خاصة كل واحدة من الطبيعتين مازالت محفــوظة تؤلفان كلتاهما شخصا واحدا وأقنوما واحــــدا لا مقسوما ولا مجزءا الى شــخصين • بل هو ابن ووحيد واحد هو نفسه الكلمة الرب يســـــوع المسيح » •

خلاصــة القول أن الايمان الخلقيدونى أخــذ الطريق الوسط بين النسطورية واليوطاخية .. اذ نادى بطبيعتين فى المسيح •• الهيــة وبشرية ••

مستقلتين غير منفصلتين .. وهكذا بدأ الانفصال العقيدى بين الشرق والغرب .. كل منهما يصم الآخر هرطوقيا .

عجيب حقا أنت أيها التاريخ ..

تشهد صراعا من حول المسيح دائرا ... اله هو أم بشر ؟ أو هو اله وبشر ؟!

وتنفذ الى الاعماق .. وتسبر الغور .. فتراه صراعا من أجل زعامة كنسية وسيادة أسقفية .

لكم عانى المسيح من جراء كره اليهود له ..

ولكن كم كانت معاناة المسيح أشد قساوة بفعل حب أتباعه له ..

قديســون ...

« الا فليعلم الجميع أنى فى حب الرب أموت طائعا .. اذا لم يحل بينى وبين الموت حائل، انى أضرع اليكم ألا تأخـــذكم بى رأفـــة .. ولكن اتركونى للضوارى تمزق جســدى .. ذلكم هى الطريق التى بها أصل الى الله » .

جوستين : القرن الثانى الميلادى

« ... لقد اختفت التقاليد القديمة وعاطفـــة الولاء .. حقا لقد كان الرجال فخـــورين بانهم مواطنون رومان وليسوا برابرة .. ولكن عاطفـة الولاء لم تحرك أحدا منهم ليضحى من أجل روما بحياته أو ماله .. لقد كانت الامبراطورية شديدة الاتساع .. وكان الاباطرة بعيدين جدا عن القدرة على احياء أية عاطفة سوى شعور الخوف . لقـــد

اختفى شعور النبـــالة الملزمة بين الطبقـــة الارستقراطية ·· وانتهى الاحساس بحب الوطن من قلوب الطبقة المتوسطة ·· وانحل النظام بين جحافل الجند ··

« لقد ضاع كل شيء ·· » .

هذا ما يقوله المؤرخ جونز ·· يصف به الحالة العامة التى أضحت عليها الامبراطورية الرومانية فى النصف الثانى من القرن الثالث ، والذى كان محصلة طبيعية للاحداث التى مرت بها الامبراطورية فى الداخل وعلى حدودها لسنوات طوال .

حقا ·· لقد عاد هذا الاتساع العـــريض للامبراطورية على الرومانى بخير الممالك الهلنستية التى ورثتها روما عن الاغريق ·· غير أن هـــذه الثروة التى وجد الرومانى نفسه غارقا فيهـــا من حيث لايحتسب ، أفقدته الكثير من صـــفاته الاساسية التى كان يتحلى بها ويبـــاهى ·· وافاق الرومانى على الاخطار تتهدد الامبراطورية نتيجة الاغارات التى تشنها زحوف القبائل الجرمانية على الدانوب والراين ·· والفرس عند الفـــرات ·· وتدخل الجيش فى تنصيب الاباطرة وعزلهـم ··

واستحسن العسكريون لعبة الكراسى الامبراطورية هذه .. وكانت السنة ٦٩ م قد علمتهم أن الامبراطور يمكن أن يوجد فى أى مكان خارج روما ، اذ شهد العام هالك أربعة أباطرة يقتسمون العرش . والكوارث الاقتصادية تعصف بالكيان الامبراطورى وتغلف الجميع بستار من المجاعات والاوبئة .

ووسط هذا الجو المتوتر المخيف ... اجتاحت الامبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية والانجذاب الروحى ، هرع على اثره الرجال والنساء الى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون اليها بالصلوات والدعاء . وكان الرومان قد استقدموا الى البانتيون الرومانى أربابا من الشرق ، بعد أن رأوا تقدم العمر بالهتهم .. والوهن الذى أصابها ، وتبدى واضحا فى عجزها عن اعادة فرض سيطرة النسر الرومانى على أطراف الدولة وجبهاتها المختلفة ، وتغاضيها التام عن أهواء الطبيعة المتقلبة التى مست أقواتهم ! بينما بحث المثقفون عن السلوى فى الفلسفة الافلاطونية المحدثة التى ذاع صيتها انذاك على يد أمونيوس سكاس وتلميذه أفلوطين السكندرين .. والتى تقدم لها مرتبة صوفية للخلاص .

غير أن هذين السبيلين .. الارباب والفلسفة ، لم يفلحا فى اخراج الرومانى من الحالة النفسية القلقة التى كان يعانى منها . اذ لم تهتم هذه أو ذاك بالعدالة الاجتماعية ، ولم يكن عند أى منهما مجرد الرغبة فى انقاذ العالم كوحدة واحدة ... وخلاصه من شروره .

وكان يحمل هذا المبدأ الاخير ديانة شرقية جديدة هى المسيحية ، تبدت عقيدتها . كما رسمها آباء الكنيسة ، فى اله مخلص سار فى طريق الآلام والتعذيب ليكفر عن خطايا البشر .. مات ثم قام ثانية من بين الاموات .. وصعد الى السماء وسوف يأتى فى نهاية العالم ليدين الاحياء والاموات .

وقد شاركت المسيحية العقائد الشرقية المعروفة آنذاك اسرارها الخفية وغموضها وطقوسها .. ولكنها فاقت سائر هذه العبادات الوضعية فى تأثيرها .. لان المسيح كانت له جاذبية أحدثت فى هذه النفوس القلقة .. راحة . وبشرت الكنيسة بأنه نال الموت من أجل خلاص الناس أجمعين .. وتفردت بتعاليم أخلاقية قابلت الهوى ، وعلى خلاف المثرائية ، التى قصرت عضويتها اقامة

شعائرها على الرجال دون النساء ، وعبـــادتى الحنان الانثوى سيبيلى وايزيس ‥ ملكت المسيحية على الجموع الأفئدة ٠

لقد ابتعدت المسيحية فى سنى عمـرها الاولى عن التعقيدات الفلسفية التى أغرقت نفسها فيهـا بعد ذلك .. عندما ذاع فى الناس انجيل يوحنـا بمقدمته الفلسفية ، ورسائل القديس بولس ‥ واشتدت حاجة المســيحيين فى الوقت ذاته الى التفلسف لمجابهة مثقفى الوثنية وفلاســفتها ‥ وعلى تلك الصورة الاولى البسيطة من عقيـــدة الخلاص ‥ عرف الناس المسيحية ‥ وآمنوا بها وازداد تعلقهم ٠ وبهرتهم صورة الفادى أو المخلص الذى جاء ليضع عنهم خطيئة أبيهم آدم الاولى والتى تجرى فى عروقهم ٠ واستهوتهم حياته بين الناس ومعجزاته التى أتاها ‥ وميلاده المعجز ‥ وموته وقيامته بالشكل الذى رسمه آباء المسيحية وهم يبشرون ٠

ونجحت الكنيسة ببراعة وهى تخـاطب هاتيك القلوب الحائرة ‥ تبحث عن مرفأ للعقيـدة أمين تأوى اليه بعد أن فقدت ثقتهـا بالارباب ‥ والنفوس المكدودة التى اعتصرتها تلك المفاسدالتى

تردى فيها المجتمع اليهودى .. والرومانى بعامة آنذاك حتى جعلتها كالرميم .

ولم تكن المسيحية تتطلب من الراغبين فى الايمان بها أكثر من السير فى طريق المسيح .. طريق الآلام .. ولكنها ليست كتلك التى يعانى منها الناس فى حياتهم .. انها آلام من نوع جديد .. مختلف تماما .. هى طريق للتطهر ترتفع بالسائرين فيها فى النهاية الى مرتبة من السمو الروحى ، يفنون عندها فى المسيح .. ويصبحون من بعد رفاقه فى ملكوت السماوات . مملكة الله الآتية .

كانت الوثنية تقدم لعبادها طقوسا جوفاء .. بخورا يحرق .. وذبيحة تقرب .. وادعية وصلوات وضراعة لارباب انصرفت عن أتباعها لشئونها . وجاءت المسيحية فى بساطتها الاولى تخاطب الروح .. وتعلو بها عن هذا العالم المادى وتعلن ان الاغنياء لن يدخلوا ملكوت السماوات حتى يلج الجمل فى سم الخياط . وأحس الناس بتيار جديد لم يألفوه من قبل يسرى فى نفوسهم، ويتحدث الى الروح منهم .. ويعدها وعدا حسنا بعالم جديد .. خال من كل هذه الشرور والآثام

التي يخوض فيها .. عالم ليس مكانه هذه الارض ولكنه هناك .. في السماوات العلا ..

لقد وجد الروماني الخلاص الذي كان يبحث عنه ..

من هنا كان تعلق المسيحيين بالمسيحية .. واصرارهم على البقاء عليها رغم ماقذفتهم به السلطات الامبراطورية من ويلات العذاب .

كان المسيحي يؤمن جيدا ان الموت هو السبيل الوحيد الذي يصل به الى أن يكون رفيق المسيح في مملكته الآتية .. وزاد من صلابة الجموع وتحديها للعذاب واستهانتها به .. ان عددا ليس بالقليل من رجالات الكنيسة .. أساقفة .. ومن دونهم في المرتبة الكهنوتية .. قد تعرضوا هم الآخرون بثبات لهذا الاضطهاد .. ومات منهم كثيرون .. وكلما ازدادت موجات الاضطهاد .. ازداد المسيحيون بالتالي عنادا وتمسكا بعقيدتهم، وقد اشتدت ضراوة هذا الاضطهاد في النصف الثاني من القرن الثالث .. وبلغ طوفانه على عهد دقلديانوس وقيصره جاليريوس . حتى أطلقت الكنيسة على هذه الفترة ـ كما أسلفنا ـ عهد الاضطهاد الاعظم .. أو عصر الشهداء . ولئن كان

بعض سراة المسيحيين قد آثروا رغد العيش على المسيحية .. وراحوا يقربون للارباب .. فان الكثرة الغالبة بقيت على عقيدتها . حقيقة كان عدد الذين فروا الى الصحراء بدينهم ، وشكلوا نواة الرهبانية فى المسيحية ، يفوق دون شك أولئك الذين قبلوا الموت وأقبلوا عليه أو سيقوا اليه .. الا أن دماء هؤلاء كانت بلا ريب مددا جديدا كتب للمسيحية فى النهاية أن تنتصر على الوثنية .

وقد سجلت لنا أقلام مؤرخى الكنيسة والمعاصرين فى تلك الفترة وصفا دقيقا لهذه الاحداث ، وكتب لاكتانتيوس .. البلاغى الافريقى المعاصر ، الذى انتقل الى نيقوميديا زمن دقلديانوس .. رسالة أسماها « عن موت المضطهدين » ، حدثنا فيها عن المصائر التعسة التى انتهى اليها الاباطرة المضطهدون ، وروى لنا روايات كثيرة عن صور العذاب الذى لقيه المسيحيون .. وطرائق الموت التى ابتكرها الوثنيون . أما يوساب أسقف قيسارية فلسطين ، الذى يعد أبا للتاريخ الكنسى .. فقد وضع مؤلفه الشهير « تاريخ الكنيسة » عرض فيه بترتيب تاريخى .. واتساع أفقى أحوال الكنيسة

المسيحية حتى عام ٣٢٤ للميلاد .. وقـــدم لنا ايضا نماذج الاضطهادات التى تعـــرض لها المسيحيون بفعل أباطرة الوثنية . وبطبيعة موقعه عقد فصلا خاصا .. هو الفصل الثامن من كتابه، للحديث عن « شهداء فلسطين » .. وان كان الى جوار ذلك يذكر قائمة باسماء رجال الكنيســة الذين سيقوا الى الموت فى الاســكندرية ومصر وسوريا وآسيا الصغرى وروما .

وكان طبيعيا جدا ... وسط هذا الجو الدرامي الدينى العنيف أن تظهر قصص كثيرة حول شهداء المسيحية هؤلاء الذين قدموا أرواحهـــم فداء لعقيدتهم ، وكان طبيعيا أيضا أن تختلط فى هذه القصص .. الحقيقة بالخيال .. وأن يزداد الخيــال فى كل مرة تروى فيها هذه القصــة أو تلك .. حتىلايترك منالحقيقة الا ظلا باهتا وصورة شاحبة، لايستطيع الباحث المنصف الا أن يقف أمامهــا موقف الشك والريبة .. بعد أن تغدو هذه القصة أو تلك نوعا من الاسطورة ، وتصبح ... كمــا يقول ارنست كاسيرر .. « من اشد الظـــواهر استعصاء على التحليل المنطقى .. وتتبدى للنظرة الاولى فوضى محضة أو كتلة لا شكل لها من الافكار

المبعثرة » ويضيف كاسيرر .. « .. واذا كنا في حال هياج عاطفي تحقق لدينا الادراك الدرامي للاشياء جميعها .. اذ لا تظل هذه الاشياء في نظرنا تواجهنا بوجوهها المعروفة ، وانما تتغير سحنها فجأة وتصطبغ باللون الذي نلقيه عليها من عواطفنا ... من حبنا وبغضنا .. من خوفنا ورجائنا » .

ولا يعني هذا أن كل ما روي عن شهداء المسيحية .. أو عن قصص العذاب قد داعبها الخيال .. أو عصف بها .. ففي الاسكندرية وحدها لازالت صورة التحدي للاباطرة الوثنيين ، التي أبداها على سبيل المثال أوريجن وديمتريوس وديونيسيوس وبطرس ، وكما رواها يوساب القيساري ... تدل على أن الوقائع التاريخية صادقة بدرجة كبيرة . ولكن الذي نعنيه أن روايات الاصطبار على العذاب الذي أبداه نفر من المسيحيين قد استهوت الكثيرين .. فنسجوا من حولها في حياة أولئك وحتى بعد مماتهم خيوطا من المعجزات والعجائب خرجت بأصحابها من الصورة المشرقة الاولى التي يقبلها العقل . الى الطور الاسطوري المحض الذي يتعلق به العامة الى حد الايمان .

وقد ارتفعت مرتبة هؤلاء « القديسين » في القرون التى تلت عصر الاضطهاد ٠٠ وحرص المسيحيون على اقتفاء أثر ٠٠ أى أثر لواحد أو أكثر من أولاء القديسين ٠٠ وكان امرا طبيعيا أن تنتشر صور أو أيقونات أولئك القديسين بين المسيحيين على اختلاف طبقاتهم ، وأن تحاط بهالة من الاجلال والتقديس ، بلغت فى نهاية القرن السابع الميلادى درجة عبادة هذه الصور أو الايقونات ٠٠ حتى ان مؤرخا مثل أومان ٠٠ أطلق على أباطرة الاسرة الايسورية البيزنطية ، التى شنت حربها على عبادة الصور وعبادها اسم « محطمى الاصنام » ! بل انه منذ مطلع القرن الرابع الميلادى ٠٠ أبدى بعض اساقفة الكنيسة المفكرين ٠٠ امتعاضهم ازاء ازدياد تعلق المسيحيين بصور القديسيين وايثارها على الكتاب المقدس ذاته ٠٠ وكان مجمع الفيرا فى أسبانيا عام ٣٠٠ أوضح الامثلة على ذلك ، كما أن يوساب القيسارى نفسه ، الذى تستمد الروايات الشعبية من تاريخه الكنسى نقطة الانطلاق ، أعلن « ان تزيين الكنائس والدور بالايقونات واقامة التماثيل محض بدعة وضلال » ٠٠ هذا بالاضافة الى الدعوة التطهرية التى أطلقها البيالصة فى أرمينيا ٠

ولعل حياة المسيح بين أتباعه ‥ والمعجـــزات التى جاءت على يديه ‥ والصورة التى بشر بهـا آباء الكنيسة عن موته ‥ ثم قيامته ثانية من بين الاموات فى اليوم الثالث ‥ وصعوده الى السماء، وجلوســه عــن يمين الآب ‥ ومـا الى ذلـك ‥ وما ذكروه من القول بأن روح القدس كان دائما على الرسل والتلاميذ ‥ ينطقـــون به ‥ ويأتون أعمالهم ‥ لاشك أن هذا كله قد ساعد الى حـد كبير على خلع هذه الصورة من المعجزات عـــلى هؤلاء القديسـين ‥ وأن بامكـانهم أن يأتوا من هذه المعجزات بمثل ما كان يأتى به المســيح ‥ ودعمت الروايات ذلك بما جاء فى انجيـــل متى عن الرسل «فخرجوا وصاروا يكرزون أن يتوبوا . وأخرجوا شياطين كثيرة ودهنـــوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم » . وما تضمنه انجيل مرقس ‥ « لأنى الحق أقول لكم ان من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر ولايشك فى قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما قال يكون له » . وقد تجاوز اتيان المعجزات أسوار الحياة ، فجعـلت الروايات للقديسين قدرة بعـد الموت عـلى صـنعها ‥ واذا حصرنا حديثنا على مصر وحدها فان مارمينا يبرز للصفوف الاولى فى هذه الناحية ، حتى لقد لصق

باسمه صفة « العجايبى » لما جاء به من معجـزات وعجائب تفوق طاقة البشر ٠٠ اذ رد الحياة كمـا تقول الاسطورة الى عدد من الموتى ٠٠ والغريب انه هذا حدث على يديه بعد أن انتقل هو نفسـه الى عداد الموتى ! ولم ينفرد مارمينا المصرى وحـده بصفة « العجايبى » بل شاركه فيها الكثيرون من قديسي المسيحية خارج مصر ، ويقول سير توماس أرنولد « ان مـا عـاناه الشـهداء فى اضـطهادات دقلديانوس ، ومادون عن المعجزات التى أتى بهـا هؤلاء الشهداء ٠٠ وما اعطوا من الضـمانات بان جنة النعيم قد فتحت أبوابها لكل شهيد مات على أيدى معذبيه ، كل هذا أثار فى نفـوس المصريين حماسة أدت الى سرعة انتشار الدين المسـيحى بينهم » ٠

ومادمنا بصدد الحديث عن مارمينا « العجايبى » فلا ضير من أن نعرض لشىء من حياته ٠٠ فقـد ولد لابوين مسيحيين كانا يقيمان فى بلدة نقيوس (الآن زاوية رزين مركز منوف) وان كان ميلاده قد حدث في ولاية افريقيا الرومانية ، حيث انتقلت اسرته لان أباه كان أحد موظفى الادارة الامبراطورية حسبما تقول الروايات ٠ وبعد مضى خمسة عشر عاما على ولادته ، أى حوالى سنة ٣٠٠ للميـلاد ،

التحق بالخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى العامل فى افريقيا • ولم تكد تمر على ذلك سنوات ثلاث حتى صدر المرسوم الدقلديانى الاول بالاضهاد لجماعة المسيحيين فى الامبراطورية•• وكان مينا قد فقد أبويه، فآثر الفرار بدينه الى الصحراء• حيث مكث بها خمسة أعوام •• ويبدو أن مينا قد اقتنع بأنه لاجدوى من بقائه وحيدا فى الصحراء، وانه من الافضل ان يعود وأن يشارك الجموع قدرها • ولعله أيضا قد أتاه نبأ اعتزال دقلديانوس الحكم (٣٠٥) ووقوع الامبراطورية الآن فريسة حرب أهلية قاسية ، وخاصة فى هذا العام (٣٠٨) الذى عاد فيه الى دنيا الناس ، اذا اعتلى عرش الامبراطورية فى وقت واحد ستة أباطرة ، ومن ثم داخله الاحساس بأن حدة الاضطهاد قد خفت نتيجة هذا الصراع السياسى العسكرى • وعليه يصبح من السهل أمامه أن يعظ الجموع ويدعوها الى المسيحية • غير أن الروايات تعود بسبب هجرانه للصحراء ، الى ماتراءى له فى السماء ذات ليلة من نور •• واذا بملاك الرب يناديه أن « اذهب للجهاد •• وسوف تنال أكاليل ثلاثة •• اكليل البتولية •• واكليل التوحد •• ثم اكليل

الاستشهاد » ، وترتب الروايات على ذلك مايظهر في بعض الايقونات من صورة للقديس وفوق رأسه ثلاثة أكاليل .

غير انه ما أن بدأ مينا ينشر فى الوثنيين دعوة المسيح ، ويرفض الامتثال للاوامر الامبراطورية بالتقريب للارباب ، حتى قبض عليه ، وعذب بغية أن يرتد عن دينه ، فلما أبى تم اعدامه ثم أحرقت جثته .

الى هنا .. تبدو القصة عادية جدا .. فشأن مينا الى الآن شأن الكثيرين غيره ممن‌قدموا أرواحهم فداء لعقيدتهم . ولكن الروايات التى حدثتنا عن سيرة مارمينا ، أضفت على الرجل قصصا كثيرة دارت كلها حول وسائل التعذيب وألوانه التى تعرض لها .. فمن عقوبة الجلد .. الى تمزيق جسده بأظافر من حديد ، الى السير عارى القدمين على قطع من الصوان الحادة .. الى تسليط النيران على جسده .. كل هذا يتم ثم يخرج منها القديس دون أن يمسسه سوء .. وربما قصد الراوى هنا روح القديس دون جسده . على أن كل هذا لايعدل مطلقا ماروى بعد ذلك .. أى بعد وفاته من معجزات خارقة وصلت الى حد احياء الموتى !! وقد

تمت هذه المعجزات في مريوط حيث كان جسد مارمينا قد نقل اليها فى صحبة بعض الجنود الذين وكل اليهم التوجه الى مصر ، وذلك فى عهد أسقفية اسكندر ورفض التحرك منها عائدا مرة أخرى الى افريقيا ، مما دفع قائد هذه الفرقة العسكرية ، أن يأمر برسم صورتين لمارمينا تظهره واقفا ، وعند قدميه اثنان من الوحوش البحرية المخيفة ، وقد ركعا له اجلالا . وتشير هذه الايقونة الى تلك الوحوش التى هاجمت سفينة الجنود أثناء ابحارها من افريقية الى الاسكندرية وكادت تغرقها لولا أن أسهما من لهب انبعثت للتو من جسد القديس لتحرق هذه الوحوش ، حسبما تحكى لنا الروايات .

والحقيقة .. أنه ليس لاحد أن ينكر مطلقا أن المسيحيين قد قدموا الكثير فعلا الى ساحة الاستشهاد من أجل العقيدة ، وخاصة فى عهد الاضطهاد الاعظم .. وأن بعضا من آباء الكنيسة قد تقدموا على رأس هؤلاء لينالوا الشهادة . ولكن هذا الحماس الدينى العارم استهوى الكثيرين ... وخاصة من المتأخرين الى أن يعيدوا كتابة سير هؤلاء القديسين على النحو الذى يخاطب عواطف العامة

وايمانها المطلق . وليس أدل على ذلك من أن عمدة التاريخ الكنسى .. يوساب القيسارى لم يذكر شيئا من هذه الروايات ، ويخلو كتابه أو يكاد من المعجزات والاساطير التى الصقها أو حاكها خلفاؤه وعلى الاخص مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس سوزومين ، والذى يقول عنه المؤرخ ول ديورنت « ان دراسته للقانون لم تمنعه من الايمان بالخرافات » . والجدير بالذكر أن يوساب القيسارى كان معاصرا لهذه الاحداث .. ولفترة الاضطهاد القصوى .. مقيما فى مكان شدته بوجه خاص .. وما كان أيسر عليه أن يحدثنا فى كتابه عن كل ذلك خاصة وأنه ذكر فى مقدمته أنه سوف يكتب تاريخا للكنيسة وآبائها المقدسين .

أما سيرة مار جرجس فانها أكثر من سابقتها طرافة .. ولكنها أشد تعقيدا . فحياته الاولى فى بعض الروايات تكاد تتفق الى حد كبير مع حياة مار مينا .. أعنى الخدمة فى الجيش الرومانى .. غير أنه فى الوقت الذى ظل فيه مار مينا جنديا صغيرا .. استطاع مار جرجس أن يحوز ثقة الامبراطور دقلديانوس نفسه ، وكان الامبراطور يقيم آنذاك فى نيقوميديا .. ومار جرجس أصلا

من كبادوكيا ٠٠ وكلتاهما فى آسيا الصغرى ٠
وبفضل هذه الثقة تمكن مارجرجس من ان يصل
الى الدرجات العلا ولما يبلغ بعد العشرين من
عمره ٠

ويخبرنا يوساب القيسارى فى تاريخه
الكنسى ٠٠ أنه لما بدأ الاضطهاد الاعظم للمسيحيين
على يد الامبراطور دقلديانوس ، وصدر المرسوم
الاول فى هذا السبيل ، وعلق فى أحد ساحات
نيقوميديا ، العاصمة آنذاك ، تقدم رجل وئيد
الخطو ٠٠ شديد الثقة بالنفس ٠٠ وأمسك
بالمنشور ومزقه دون وجل أو خوف ، رغم أن
الامبراطور وقيصره كانا يقيمان آنذاك فى المدينة ٠
ولما سيق الرجل الى الموت لم تشعر روحه
بالعذاب ٠٠ ولم يوضح لنا يوساب طرائق هذا
التعذيب وان كان يقول أنها الشائعة آنذاك ٠ ثم
لم يلبث ذلك الرجل أن مات ٠

ولم يترك لنا يوساب اسم ذلك الرجل الجسور ،
الذى تحدى السلطة الامبراطورية ٠٠ وقد أورد
الكاتب المسيحى لاكتانتيوس هذه الرواية أيضا
فى رسالته « عن موت المضطهدين » دون أن يخبرنا
هو الآخر بشىء عن اسمه ، هذا على الرغم من أنه

كان يقيم آنذاك فى نيقوميديا ذاتها ٠٠ وعلى صلة وثيقة بالبـــلاط ٠ ورغم أن لاكتانتيوس أبدى استياءه لهذا العمل الذى أقدم عليهذلك «المجهول» باعتبـاره عملا غير قانونى ٠٠ الا أنه فى الوقت ذاته عبر عن اعجابه بروح الشجاعة التى يتحلى بها هذا الرجل ٠٠ وكل ما يقوله يوساب عنه أنه « لم يكن مغمورا ٠٠ بل كان ذا مرتبة عالية وخلق كريم » ٠

غير أن التابعين اســتلهموا هــذه الروايات ، وجعلوا من ذلك الرجل المجهول قديسا هو جورج أو مار جرجس ٠

وتقول الروايات أنه حدث ذات يوم ، وقد دعا الامبراطور مستشاريه وحاشــيته لاجتماع عاجل للنظـر فى أمر هــذه الجمـاعة المســيحية ، وراح الجميع يتذاكرون مواقف المسيحيين تجاه الدولة أثناء أزماتها والكوارث التى مرت بها ٠٠ وازدراءها للارباب مما جلب سخط هؤلاء على الامبراطورية ، نهض رجل من بين الحضـــور ، وأخذ يوضـــح للحاضرين خطأ رأيهم ، وينحى باللائمة عـلى المـلأ ايمانه بمجتمع الآلهة ، ويدفع عن المســيحيين الاتهامات التى لصقت بهم ، وقد تملكت الدهشـة

الحضور لهذا الذى يقوله أحدهم ... ولم يكن هذا الرجل الا صـــديق الامبراطوز ، الشاب المقرب اليه ، الذى هو جورج نفسه • ولم يكن قد أعلن لاحد مسيحيته •

وكان طبيعيا أن يلقى القبض على هذا المجترىء وأن يساق الى العذاب •• ثم الاعدام •

والى هنا أيضا •• قد تبدو القصـــة عادية •• وان كانت المصادر التاريخية الكنســـية المعاصرة والموثوق بها لم تحدثنا بشىء من ذلك •

ولكن القصـــة ســـلمت نفسها طائعة الى ذلك الغلاف الاسطورى الذى لا يكاد يختلف كثيرا عما حدث لمار مينا •• ونلاحظ أن القديسين ظهرا فى عام واحد هو سنة ٣٠٣ •• وان كان أحدهما فى نيقوميديا والآخر فى افريقيا • فقد مر القديس بألوان مختلفة من التعذيب اذ وضع فى حوض من الكلس يغلى •• فلمـا أخرج منه وقـد ظن الجميع انه مـات فغر الـكل فـاه مشـدوها اذ وجـدوه حيا • ولما اقتيد جورج الى دولاب غرســـت فيه السيوف ومخالب من حديد وعلق عليه ، وأدير جسده على الدولاب فوق تلك السيوف والمخالب ،

تقطعت أعضاؤه وتمزق لحمه .. ولكنه احتمل ذلك
تقطعت أعضاؤه وتمزق لحمه .. ولكنه احتمل ذلك
صابراً ، وحسب الناس أنه مات .. ولكن الامر بدا لهم غاية في الغرابة عندما أنزل القديس سليما معافى ..!!

والغريب الذى لا يمكن أن يقبله المنطق التاريخى .. أن الروايات المختلفة التى أوردت قصص العذاب لشهداء المسيحية ، تجعل من دقلديانوس امبراطورا لاهيا عابثا ، ترك أمور الدولة كلها وانصرف عنها الى تسلية نفسه والترفيه عنها بمشاهد العذاب هذه . والذى يذكره التاريخ لدقلديانوس أنه كان سياسيا حاذقا واداريا حازما أعاد الى الامبراطورية شبابها بعد أن عصفت بها الفوضى والانهيار فى الداخل .. وتعرضت حدودها لهجمات الفرس والجرمان .. ووصلت قرب نهاية القرن الثالث الميلادى الى شفا جرف هار . هذا الى أن لاكتانتيوس .. وهو شاهد عيان للاحداث .. يلقى بتبعة هذا الاضطهاد كله على القيصر جاليريوس ويحاول أن يبرىء دقلديانوس من ذلك .. قد تكون لذلك أسباب خاصة تعود الى الصلة الوثيقة التى تربط بين الكاتب والامبراطور . ولا يعنى هذا أننا نبرىء دقلديانوس من مسئولية الاضطهاد .. ولكن الذى

نعنيه أن هـــذه الروايات عن الشهداء قد بالغت كثيرا في تصوير شخصية دقلديانوس على هـذا النحو الذى جعلته عليه ٠

على أية حال ٠٠ تمضى الاســطورة قائلة ان الامبراطور لم يجد بدا ، بعد الذى رآه من عجيب أمر جورج ، الا أن يعمل على استرضائه ثانية ٠ وأخذ يتقرب اليه ويعده وعدا حسنا ان هو عاد الى ديانة الارباب ٠٠ دون جدوى ٠

وذات يوم اصطحب جورج الامبراطور الى معبد الاله أبوللو ٠٠ ووقف جورج أمام تمثـال الاله قائلا : أأنت اله لأقدم لك ذبيحة ؟

أجاب أبوللو يرتعد : كلا ٠٠ لست باله ٠

واتجه جورج الى باقى الارباب ٠٠ وســألهم جميعا بمثل ما ســأل أبوللو ٠٠ وأجابوه بمثل ما أجاب به كبيرهم ٠

وتمضى الاســطورة قائلة ٠٠ ان جورج وقف أمام الارباب ورسم علامة الصليب فخرت كلهـا على وجهها صريعة !! ونادى الوثنيون أن بجـورج مسا من الشيطان ٠٠ وهلل المسيحيون بأن عليه روح القدس ٠ ولم يجد الامبراطور أمامه من سبيل

ســـــوى أن يأمر باعدام جورج ٠٠ فاحتــزت رأسه ٠٠ فاعتبره المسيحيون قديسا شهيدا ٠

والرواية لا تثبت لبرهة أمام النقد التاريخي٠٠ ومن ثم فان الدراسات التاريخية ترفض ان يكون ذلك الرجل المجهول عند يوساب هو سان جورج أو مار جرجس ، ذلك أن بعض الروايات الاخرى تجعل من هذا الرجل المجهول قديسا آخر هـــو سان جون ٠ كما أن الدراسات التاريخية لا تقبل أيضا تلك الاسطورة التى حيكت من حوله ٠ وقاد المؤرخ الشهير ادوارد جيبون حملة عنيفة على مثل هذه الرواية ٠

وربما تتفق وجهة النظر التاريخية مع الاسطورة في أنه من كبادوكيا ، وأنه عمل فعـــلا فى خدمة الجيش ٠٠ وفقط ٠٠ ولكن ليس باعتباره جنـديا مرموقا ، بل بصفته متعهدا لتوريد الاغذية وخاصة لحوم الخنـــازير ، وأنه جنى من وراء ذلك ثروة ضخمة وحاز مكانة ٠

وكانت الامبراطورية الرومانيـــة آنذاك تحت سيادة الامبراطور قسطنطيوس (٣٣٧ ــ ٣٦١)، وكان نجم العقيدة الآريوسية الى صـــعود ، على النحو الذى أسلفنا ٠وقد آمن جورج بالآريوسية٠

فلما تم نفى الاسقف السكندرى أثناسيوس سنة ٣٥٦ ، وهو النفي الثالث في حياته الاسقفية .. رسم جورج الكبادوكى أسقفا للاسكندرية خلفا له .

ويرسم أثناسيوس فى كتاباته المختلفة ، ويتابعه فى ذلك مؤرخو الكنيسة جميعهم .. صورة للاخلاق الدنية التى كان عليها جورج .. وتجرده من كل القيم والمبادىء ، ويصفون الفظائع التى واكبت دخول جورج الكبادوكى الاسكندرية ، وكيف انه أخذ يتعقب انصار اثناسيوس والايمان النيقى ويقتص منهم ، سواء فى ذلك رجال الاكلىروس او شعب الكنيسة . حتى ان المؤرخ جيبون يصف مسلك الاسقف الكبادوكى انه شبيه بمسلك « احد الغزاة البرابرة »

غير ان جورج فى الوقت ذاته كان عنيفا مع الوثنيين فى الاسكندرية قدر عنفه مع اتباع اثناسيوس ، فلم تنج من هجومه المعابد ولا الارباب ، ولم يسلم من اذاه عباد الوثن .

ويقص علينا مؤرخو الكنيسة قصة فى هذا الشأن ، هى التى دفعت نفرا من المؤرخين على

رأسهم شيخهم ادوارد جيبون الى القول بأن جورج الكبادوكى هـذا .. هـو شـان جـورج .. أومارجرجس الشهيد .. فيذكرون ان قسطنطيوس الامبراطور أهدى الى كنيسة الاسكندرية قطعـة ارض فضاء تقع داخل المدينة . ويبدو ان هـذا المكان كان من قبل معبدا لاحد الارباب ، ثم تناولته يد الزمان وعدت عليه حتى اضحى خرابا . وأراد جورج ان ينشىء كنيسة فى هذه المنطقة ، فأمـر بازالة ما علق بها من الدنس والقمامة قبل الشروع فى البناء .

ولما بدأت عمليات الحفر اصطدمت معاول الهدم بقدس أقداس المعبد القديم ، وامتدت الايدى الى كمية هائلة من العظام قيل انها ادمية ، وقيـل أيضا على لسان مؤرخى الكنيسـة .. انها بقايا الضحايا البشرية الذين كانوا يقدمون للأرباب . فلما شاع الخبر فى الاسكندرية هرع المسـيحيون من كل مكان ، وتناولوا هذه العظام وطافوا بهـا شوارع المدينة .. فى مظاهرة ضخمة تعبر عـن انتصار عقيدتهم وتحطيم ذكرى الآلهة .. فلمـا عاين الوثنيون ذلك .. اندفعوا فى هجوم يائس لايلوون على شىء .. يحطمون كل ما تصـل اليه

ايديهم ، وقتلوا فى طريقهم عددا من المسـيحيين المتظاهرين ، الذين اسـاءوا الى شـعورهم بهـذا المسلك • وانتهى الامر بالقبض على جورج وربطوه الى جمل جره فى شوارع الاسكندرية ، حتى اذا تمزق جسده واشرف على الهلاك ، اشعلوا فيـه والجمل النيران ٠٠ !!

وسواء صحت هذه القصة التى يرويها مؤرخـو الكنيسة ، أم داعبها الخيال ٠٠ فالذى يقره الواقع التاريخى ان جورج الكبادوكى كان يدين بالعقيدة الآريوسية ، وانه تولى عرش اسقفية الاسكندرية بدلا من اثناسيوس مـا بين عامى ٣٥٦ ، ٣٦١ ، وانه مارس اضطهادا عنيفا تساوى فيه المسيحيون اتباع الايمان النيقى ، والوثنيون ، حتى جلب على نفسه سخط الجموع بأسرها • فلما مات الامبراطور قسطنطيوس سنة ٣٦١ وخلفه جوليان وأعلن عن اعتناقه للوثنية واعتزامه اعادة الامبراطورية اليها ، تم القبض على جورج واودع السجن قرابة الاسابيع الثلاثة • غير أن دهماء المدينة المتلهفة للقصاص ، ضاقوا باجراءات المحاكمة المملة والشـكليات القانونية ، وهاجموا السجن ٠٠ واخرجوا جورج

.. وأسلموه الى الموت على الصورة التى يرويها المؤرخون .

وكان لابد للاريوسيين ان يخلدوا هم الآخرون ذكرى اسقفهم ، فنسجت حول جورج الكبادوكى اسطورة جديدة ، جعلت من جورج او جرجس بطلا يحارب دجالا مشعوذا هو اثناسيوس .. الذى تحول فى الروايات المتأخرة الى تنين .. على حين غدا جورج او مارجرجس فارسا يمتطى صهوة جواد .. يصارع التنين ويصرعه ، وينقذ عذراء .. وعلى هذه الصورة الاخيرة عرف سان جورج أو مارجرجس بين المسيحيين جميعا .

غير ان الروايات الكنسية ترفض التفسير الآريوسى لايقونة مارجرجس .. وتورد تفاسير عديدة لهذه الايقونة . يقول احدها ان الصورة ترمز الى مارجرجس باعتباره حاميا لاحدى الممالك أو المقاطعات التى هى هذه الفتاة العذراء ينقذ سكانها من عدو مغتصب يرمز له بذلك التنين .

ولعل هذا التبرير هو الذى قبلته انجلترا وعملت به .. اذ انها منذ القرن الثامن للميلاد تقريبا اتخذت من سان جورج حاميا لها ، رغم

انه لم يحصل على نفس الشهرة التى حازها ديفيد قديس ويلز ٠٠ او حتى باتريك قديس ايرلندا ٠ وقد ظهر هذا جليا عندما خرج ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا مشاركا فى الحملة الصليبية الثالثة ، التى أتت لتخليص بيت المقدس من ايدى المسلمين ، فانه جعل من القديس جورج راعيا لجيشه وشعارا ٠٠ والمعروف أن هذه الحملة قد حققت فشلا ذريعا فى مهمتها ٠ وفى عام ١٢٢٢ تم عقد مجمع فى اكسفورد قرر اعتبار عيد القديس جورج عيدا وطنيا لانجلترا ٠

وهناك تفسير آخر يذكر أن هذه العذراء تمثل الكنيسة الجامعة ٠٠ أما التنين فيمثل الظلام الذى يريد ان يطبق عليها ٠٠ وهذا الظلام يمثل فى الاضطهادات العنيفة التى عانتها الكنيسة المسيحية على يد اباطرة الوثنية ٠٠ وان القديس هو الذى انقذ الكنيسة من براثن هذا التنين ٠

هذا الى جوار التفسير الحرفى للايقونه ٠٠ من انه يعتلى ظهر الجواد بصفته جنديا ٠٠ وانه صارع وحشا ضاريا هو ذلك التنين الضخم ٠٠ وان كانت الروايات تضطرب فى مكان الحادثه ٠٠ فتجعلها أحيانا فى ليبيا ٠٠ وحينا فى بيروت ٠٠

وأحايين في كبادوكيا •• مسقط رأس القديس •

على أية حال •• فان نفرا من المؤرخين المحدثين •• وفى طليعتهم ادوارد جيبون ، يؤكـــدون ان جورج الكبادوكى الاريوسى هـذا •• هو نفســه سان جورج أو مارجرجس ، وذلك اعتمادا عـلى ما كتبه عنــه في القرن الخـامس الميــلادى البابا جيلازيوس ، عندما قال يصفه « انه الرجل الذى يعرفه الله اكثر مما يعرفه الناس » •

ومن الجدير بالذكر ان جورج رغم عنفه كـــان مولعــا الى حــد كبير بجمــع الكتب ، حتى اقتنى مكتبة ضخمة •• وقد حرص الامبراطور جوليان على امتلاكها بعد مقتل الاسقف •• وهدد كل من يتعرض لاى من كتبها بأقسى العقوبات •

ومهمـــا تكن الحقيقـــة •• فان الاســـطورة الآريوسية هى التى استولت على أفئدة الجموع •• ولن يعرف الناس عن مارجرجس الا القديس الذى صرع التنين وانقذ العذراء •

حقا •• لقد قدم المسـيحيون الكثير من بينهم قربانا من أجل العقيدة •• وكانت دماؤهم التى سالت على ايدى الوثنيين •• ســـموما تجرى فى عروق الوثنية حتى اهلكتهــا •• وخلــد مؤرخــو

الكنيسة بأقلامهم ذكرى اولئك الشهداء •• ولكن العامة تصر دائما على ان تخلد الإبطال بأسلوبها الخاص الذى يصور لها البطولة فى اوضح معانيها •• وابسطها •• وفى الوقت ذاته اروعها •

وما دار حول مارمينا ومارجرجس وغيرهما من القديسين •• والذى جرت به ألسنة العامة وتغلغل فى قلوبهم ••• انما يعبر تعبيرا صادقا عن الاحتجاج الشعبى على قسوة الحاكم وسلطانه الاستبدادى فى العصور التى عانت فيها مصر من قساوات اولئك الحكام •

الاضطهاد المسيحى .. وحرية العقيدة ..

« انهم والله أهل عدل .. لم يقدموا لنا فى يوم اساءة .. ولم يظهروا تجاهنا أى عداء .. ان عدالتهم كانت دوما للعيان بادية » .

ثيودوسيوس
اسقف اورشليم
فى القرن التاسع .

فى نهاية القرن السادس الميلادى .. ومطلع السابع .. أطبقت الاخطار من كل ناحية محدقة بالامبراطورية البيزنطية . ذلك ان شخصا يدعى فوقاس .. ضابط صف فى الجيش الامبراطورى .. قاد حركة عصيان ضد الامبراطور موريس سنة ٦٠٢ ، وأسلمه وأسرته الى الاعدام ، واعتلى العرش خلفا له ..

وانتهز اعداء الامبراطورية فرصة الاضطراب الداخلى هذا وراحوا يعيثون على حدودها فسادا ..

بل تخطوا هذه الحدود الى داخل الامبراطورية ٠٠ فاجتاح الفرس الولايات الشرقية حتى وصلت طلائع قواتهم الى فلسطين جنوبا ٠٠ وقبالة القسطنطينية فى الشمال الغربى ، وعادت الجماعات الصقلبية والآفارية تمارس هوايتها فتدفقت الى الليريا وتراقيا يهلكون الحرث والنسل ٠٠ وعجز الامبراطور المغتصب عن التصدى لهذه المهالك ٠٠ وأوشكت الامبراطورية ان تتهاوى ٠٠ اذا ما قفز الفرس الى العاصمة عبر البسفور ٠٠ وفرض الصقالبة حصارهم عليها من الغرب ٠٠ ووقف فوقاس حائرا لايدرى اين يذهب ٠٠ وحتى يخرج نفسه المضطربة من هذا المأزق الحرج ٠٠ شغلها بالانتقام من انصار الامبراطور السابق ٠٠ واذاق اناس العاصمة العذاب الوانا ٠

وتلبدت سماء الامل بغيوم القنوط ٠٠ وظن الناس ان يوم الدينونة ونهاية العالم قائمان فى كرسى فوقاس ٠٠ وعقبان الليل البهيم تنوح ٠٠ تودع الامبراطورية الى مثواها الاخير ٠٠ وترى الناس سكارى ٠٠ وما هم بسكارى ٠٠ ولكن عذاب اليأس شديد ، كأنما اغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ٠٠ يتحسسون الرجاء ٠٠ ويلتمسون البارقة ٠

وهنـاك ٠٠ من بعيـد عبر الامـــواج ٠٠ فى الشاطىء الآخر عند افريقيا ٠٠ انعقـد الامـل ٠ انه هرقل ارخون الولاية الطاعن الوقور ، لم يملك فوقاس ان يقترب منه فى غمرة سورته التى لم تبق على احد ولم تذر ٠ ولكن الناس جاءته تسعى وعلى الشـفاه حـديث حبيس الخوف ٠٠ وفى العيـون نظرات حد تطلعها نذير العـذاب ٠٠ وفى القلوب حسرات فجرها حب الحيـاة ٠ وأدرك هرقل رجل الساعة ان السـاعة مواتيـة ؛ فشـحن بالرجـال السفين ، وعين وليده وسميه ٠٠ هرقل الابن ٠٠ قائدا لحملة الخلاص وربانا ٠٠

وتلفت فوقـاس يمينـه ويسـاره ٠٠ فوجـد الكل يفر من المدينة التى تؤويه ٠٠ الى ذلك القائد الجديد ٠٠ الامل الذى سوف ينجيـه ٠٠ وفتحت العاصمة ابوابها رغم انف امبراطورها ، وارتمت باحضانها بين ذراعى هرقل ، وراحت تقبله فى ضراعة ولهفـة وحنين طال انتظـاره ٠٠ اسـلمت بالوعى ٠٠ كل الوعى ٠٠ غطريسها ليلقى المصير وينال الجزاء ٠ وكما فعل اله الشر من قبـل فى مصر القديمة ست بأخيه اوزوريس ٠٠ اذ قطعه اربا ٠٠ فعل البحارة بفوقاس ٠ ولكن الالـــه المصرى كان خيرا ٠٠ فوجد من يبكى عليـه ٠٠

ويجمع اشلاءه ٠٠ وبدموع الحب أحيته ايزيس ٠٠ اما فوقاس فلم يترك بوحشيته قلبا يبكيه ٠٠ ولا عينا تدمع عليه ٠٠ ولا أحدا يريد ان يبعث فيه الحياة ٠

وفي هذه الظروف العصيبة (٦١٠) اعتلى هرقل الابن عرش امبراطورية كسيرة الفوائد ٠٠ مهيضة الجناح مكلومة ٠ بعد ان عبثت بها سيوف الصقالبة في الغرب ٠٠ والفرس في الشرق ٠٠ وتمكن هؤلاء في السنوات الست الاولى من عهد هرقل أن يحكموا قبضتهم على فلسطين ، وان يضموا مصر الى أملاكهم ٠

واظلمت الدنيا في عيني هرقل ٠٠ الامبراطور الشاب ٠٠ الذى لم يستطع أن يقدم شيئا حتى الآن لرعية عقدت عليه الامل والرجاء ٠٠ لقد راحت أجزاء الامبراطورية في الشرق والغرب تتساقط في أيدى أعدائها تساقط أوراق الشجر في مهب رياح الخريف ٠٠ لقد ضاعت أرمينيا ، نبع الجيش وعضد العسكر ، وراحت مصر ، القلعة الحصينة وقبو الحنطة ، وذهبت مدينة الصلاة ٠٠ القدس ، وصليب ربها الى يد عبدة النار ٠ وظن الناس أن ساعة الحساب قد دنت ٠٠ وان العالم يصير الى فنـــاء !!!

وقديما .. وقف رسل سنحريب على أســوار أورشــليم ينذرون ناســها وملكها حزقيا بكــلام « الملك العظيم » .. « لا تســمعوا لحزقيــا لأنه يغركم قائلا : الرب ينقذنا . هل أنقــذ آلهة الأمم كل واحد أرضــه من يد ملك آشــور . أين آلهة حماة وارفاد . أين آلهة سفروايم وهينع وعــوا . هل انقذوا السامر من يدى . من من كــل آلهــة الأراضى أنقذ أرضهم مــن يدى حتى ينقــذ الرب أورشليم من يدى » .

والآن .. يعيــد ملــك فارس نفس الدور ، فيرسل الى هرقل رسالة يقول فيهــا .. « مــن كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله .. الى هرقل عبده الفاجر . ألم نقض على الاغريق ؟ أنت تقول أنك تثق فى الهك .. فلماذا اذن لم يخلص من يدى قيسارية وبيت المقدس والاســكندرية ؟ وهل أنا لن أخرب القسطنطينية أيضا ؟ على أنى سأغفر لــك جميع ذنوبك اذا قدمت الى ومعــك زوجك واطفالك .. سأمنحك الاراضى والكروم وعروش الزيتون .. وسأنظر اليك نظرة رحيمة . لاتغش نفسك بأملك الخائب فى ذلك المسيح الــذى لم يستطع حتى أن ينقذ نفسه من اليهود الذين قتلوه وصلبوه » !!

غير أن هرقل استمد من هذه الضائقة فرجا وقدمت له الجموع التى آلمها ضياع أملاك الامبراطورية وهيبتها •• والكنيسة التى شعرت بالهوان بعد أن استولى الفرس على صليب الصلبوت من بيت المقدس ونقلوه الى بلادهم •• قدموا جميعا له كل ما يستطيعون من الجهد والمال • وعلى امتداد اثنى عشر عاما منذ تولى الحكم •• راح هرقل يعد نفسه لحرب ضارية استمرت من بعد ست سنوات (٦٢٢ ـ ٦٢٨) حتى تمكن فى النهاية من أن يوقع بالفرس هزيمة قاسية فى معركة نينوى الشهيرة وان يسترد كل أملاك الامبراطورية •• وان يعيد فى حفل مهيب قدم فيه كل يهود بيت المقدس ذبيحة بسبب تعاونهم مع الفرس •• صليب الصلبوت الى مكانه •

ولكن كل ما كان يشغل بال هرقل •• كيف ضاعت هذه الأقاليم بالسرعة والسهولة التى ضاعت بها ؟! كيف تمكن الفرس أن يضموها لهم دون كبير عناء ؟ ! •

وأدرك الامبراطور أن حالة الضعف العام التى كانت تعترى الامبراطورية •• مهدت السبيل دون شك لضياع سوريا ومصر •• وأيقن أيضا

أن شعور الاستياء العام للضرائب الباهظة التى أثقلت بها الامبراطورية كواهل الأهلين .. ساهم بنصيب كبير فى هذا المجال . غير أن التقوى والورع اللذين تميز بهما هرقل .. أقنعاه أن الخلاف العقائدى بين ما تؤمن به القسطنطينية .. وما يدين به المسيحيون فى مصر وسوريا .. والاضطهادات العنيفة التى عاناها الأهلون فى الولايتين على يد الأباطرة المسيحيين .. ملأت قلوبهم بالسخط الكامل على السياسة البيزنطية .

فقد أسلفنا أنه منذ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ اتخذت كل من سوريا ومصر خطا دينيا منفصلا عن الامبراطورية .. وفى الوقت الذى آمنت فيه القسطنطينية بالمذهب الخلقيدونى القائل بالطبيعتين فى المسيح .. ظلت سوريا ومصر على ولائهما لعقيدة الطبيعة الواحدة .. وعرف هؤلاء بالمونوفيزيين فى مصر واليعقوبيين فى سوريا .. وأعلنوا أنهم يمثلون الايمان القويم .. الأرثوذكسية .. بينما اعتبرت كنيسة القسطنطينية نفسها أيضا أرثوذكسية ..

وطوال قرن ونصف من الزمان .. وأباطرة بيزنطة يسعون جاهدين حينا للبحث عن صيغة

ملائمة فى أمر العقيدة يرضى عنها الطرفان المتنازعان ، وحينا آخر لحمل المسيحيين فى سوريا ومصر على هجران عقيدتهم والايمان بما تدين به كنيسة القسطنطينية .. ولكن دون جدوى .. ومن ثم لجأ هؤلاء الاباطرة الى العنف مما أفقد الأمبراطورية البيزنطية الولاء لدى رعاياها .

ولم تكن سوريا ومصر تمثلان لهرقل جزءا من الامبراطورية وحسب .. بل كانتا فى هذه الفترة بالذات .. بعد أن ضاع الجزء الغربى من الامبراطورية تماما ... عصب الامبراطورية من الناحيتين الاستراتيجية والاقتصادية .. والأخيرة بالذات .. وانه لا يمكن للعاصمة أن تستغنى مطلقا عن قمح مصر وخيرات سوريا .. ولعلنا لازلنا نذكر ما أسلفناه على لسان أحد المؤرخين قوله .. انك اذا ما سألت أى امبراطور عن العلاقة التى تربط مصر بالامبراطورية لأجابك دون تردد .. القمح والنقود .

وكان هناك عامل آخر يزيد الامر فى نظر هرقل اهتماما ويعطيه طابعا من الجدية الخالصة . ذلك أن الجزيرة العربية كانت تشهد آنذاك .. وابان الصراع بين فارس وبيزنطة ... الذى يقتتل

فيه الجانبان من أجل السيادة وحق تائه ••
وترتوى البيد بدماء الطامعين ودم الآثمين ••
كانت الجزيرة العربية تشهد صراعا آخر من أجل
الانسان •• جرى في العقل بين سمو الفكر
ومعتقد الهوى ، يفيق بنى البشر من دونية
سكروا بها ثمالة ، وتجرعوا راحها باللا عقل
يحسبونه العقل كله •• ويهدى الى الرشد الجميع
على طريق الاله الأحد •

في شبه جزيرة العرب •• وعلى جبل النور فى
مكة ، سنة ٦١٠ للميلاد • هبطت رسالة السماء ،
دين الاسلام ، على قلب محمد بن عبد الله من بنى
هاشم ليبشر بها الناس كافة وينذر ، بالاله
الأكرم الذى خلق الانسان وعلم • فأسر بها الى
البعض ، فآمن به البعض • غير آن الآبقين عن
طريق الواحدية آذوه وناسه ونالوا منهم • ولكن
الأذى مازاد القلة الا ايمانا وتسليما • وتلقى
الأمر •• أن اصدع بما تؤمر واعرض عن
المشركين • فجهر بالدعوة ، فأعلنها دعاة الوثنية
حربا لا هوادة فيها ، واستعذب المؤمنون الآلام •
ونالوا الشهادة ، وانكر الرسول الشمس والقمر
عن يمينه ويساره سلطانا فى سبيل الاله الواحد
حبا وعرفانا •• وهاجر المسلمون الى الأقربين

مودة ·· الى المسيحيين فى الحبشة · وسار محمد صلى الله عليه وسلم ، رحلة العذاب الى الطائف وعاد · وتسمع قريش القرآن ولا تنكره ·· وتتسمع محمدا ولا تمقته · انه أمين مكة فى جاهليتها · ولكنهم يأبون ما جاءهم به من الحق والمساواة · ويحدث القرآن ، « قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ، فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ·

هو الجحود اذن ·· ولا يجتمع الجحود والحق فى دار ·· فخرج الرسول من مكة سنة ٦٢٢ مهاجرا الى يثرب ·· وهناك نصره أهلوها ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ·· وأقام قاعدة دولة اسلامية ·· وسامح أهل الكتاب من بنى يهود وآمنهم على العقيدة والديار ·· فخانوه ·· فأمكنه اللهمنهم واظهره عليهم وطهر منأدرانهم الجزيرة ·

وجاءته قريش والأحزاب من بعدها ·· وكانت بدر وانتصر المسلمون ·· وجاءت أحد وتعلم منها المسلمون ·· وحفرت الخندق ·· وردت الأحزاب بغيظها لم تنل خيرا ·· وكفى الله المؤمنين القتال وقد كتب عليهم القتال وهو كره لهم ، ولكن اذن لهم أن يقاتلو لأنهم ظلموا واخرجوا من ديارهم

بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله · واشتد بهم الشوق والحنين الى مراتع الصبا وذكرى الشباب وبيت أبيهم ابراهيم فخرجوا بعد ست سنوات قاصدين مكة والبيت الحرام ·· فحالت قريش بينهم وبين ما يبتغون ، وارتضى المسلمون السلام وكان صلح الحديبية ·

هكذا هدأت الأحوال أو كادت في شبه الجزيرة العربية ، واقدم الرسول بعد ذلك على اكمال رسالته ، فالاسلام دعوة عالمية جاءت للناس كافة · ومن ثم راح يبعث رسله الى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية وداخلها ·· هرقل قيصر الروم ، وكسرى فارس ·· والحارث الغسانى ·· والحارث الحميرى ملك اليمن ، ونجاشى الحبشة · وقيرس النائب الامبراطورى فى مصر ·· وملوك عمان واليمامة والبحرين · وكانت صورة هذه الرسائل تكاد تتشابه فيما بينها ·· نقف عليها مما جاء فى كتابه صلى الله عليه وسلم الى هرقل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ·· من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم · سلام على من اتبع الهدى · أما بعد ·· فانى أدعوك بدعاية الاسلام · أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ·· فان توليت

فانما عليك اثم الأريسيين . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ».

وكان هرقل قد عاد لتوه من انتصاراته على فارس ، واتاه هذا الكتاب وهو فى حمص ، وفى الوقت ذاته بعث الحارث الغسانى الى الامبراطور يخبره ان رسولا جاءه بكتاب مماثل .

وعلى الرغم من أن هرقل ورجال دولته لم يكونوا يقدرون القيمة والقوة الحقيقية لهذه الدعوة الجديدة ، الى الحد الذى نظر فيه القادة العسكريون فى بيزنطة الى غزوة مؤتة التى قام بها المسلمون الى أطراف الدولة البيزنطية سنة ٦٢٩ للميلاد . وهو العام التالى لانتصار هرقل الساحق على فارس .. نظروا اليها على أنها مجرد اغارة تشبه تلك التى كان يقوم بها البدو باستمرار على أطراف الدولة .. الا أن هرقل كان قد عقد العزم الكامل حتى قبل ذلك على أن ينتهج سياسة جديدة من الناحية العقيدية ، حتى يأتلف قلوب مسيحيى مصر وسوريا ، ويضمن عودة ولاء أهلها للامبراطورية ثانية .

رأى هرقل أن نصره العسكرى السياسى يصبح مؤزرا لو انه استطوع ان يحل السلام على الكنيسة ، وان يزيل ما بينها من مواضع الخلاف • من أجل هذا نفاوض أثناء حربه مع رؤساء الكنائس الشرقية وخاصة بولس الأسقف الأرمنى سنة ٦٢٣ ، وأبدى راعى الأرمن ارتياحه لرغبة الامبراطور فى توحيد الكنيسة ، وقيرس أسقف الاكراد ، وأثناسيوس أسقف أنطاكية • وقام البطريرك سرجيوس أسقف القسطنطينية بدور كبير فى محاولة استمالة عدد من رجال الدين الى الدعوة الجديدة التى ابتدعها هرقل واسقفه • ولما أعجب الامبراطور بلباقة قيرس واندفاعه فى تأييد آراء الامبراطور ، اختاره ليكون أسقفا على الاسكندرية •• وأضاف الى عمله الكنسى سلطة نائبه فى مصر !

كان الموقف شائكا تماما أمام هرقل وسرجيوس اذ كيف يمكن التوفيق بين طرفين متضادين •• أحدهما ينادى بطبيعة واحدة للمسيح من طبيعتين والآخر يؤمن بطبيعتين كاملتين •• فالمسيح عندهم اله كامل •• وانسان كامل •• بلا اختلاط ولا تمييز •• بلا انقسام ولا انفصال •

وهدى الرجلين تفكيرهما الى أن يجمعا الابيض والاسود فى خط واحد . فأذاع هرقل مرسوم الأيمان الجديد الذى يقول بالطبيعتين فى المسيح ليرضى بذلك أتباع خلقيدونية .. ثم أضاف القول بالمشيئة الواحدة أو الارادة الواحدة .. ليسترضى القائلين بالطبيعة الواحدة . أى أن المسيح له طبيعتان وارادة واحدة .. وعرفت هذه العقيدة بالمونوثلتية .. أى مذهب الأرادة الواحدة أو ما شاع بالمذهب الملكانى .

غير أن هرقل بدلا من أن يؤلف بين قلوب الفرق المسيحية المتباعدة وفكرها .. أضاف اليها فرقة جديدة .. وعقيدة جديدة .. وقد رفضت سوريا ومصر تقبل هذا الايمان الجديد ، وكان أدق ما قيل عنه .. ذلك الوصف الذى أطلقه صفرونيوس بطريرك بيت المقدس حيث قال : « انه يعد صورة ممسوخة لمذهب الطبيعة الواحدة وشكلا فاسدا للايمان الخلقيدونى » .

وعلى الرغم من توفر النية الحسنة لدى الامبراطور فى اصدار قانونه العقيدى الجديد .. الا انه اتبع فى سبيل تحقيق الهدف من ورائه ، سياسة كان لها الأثر العكسى تماما لما أراد ..

ذلـك أن عماله فى مصر وسـوريا قاموا بحركة اضطهاد واسعة النطاق ضد المسيحيين المخالفين للمذهب الجديد • فازداد الأهالى للحكم البيزنطى كرها على كره •• وفى مصر بالذات وصل الاضطهاد مداه عـلى يدالاسقف الجديد قيرس الذى أغـرق القبط فى بحر من العذاب كما يصف لنا ذلـك ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى القرن العاشر فى كتابه « تاريخ بطاركة الاسكندرية » • ويرسم لنا صورة كاملة عـن المعاناة التى لقيهـا المسيحيون فى مصر على يد مسيحيين مثلهم وضعت فى أيديهم مقاليـد الأمـور فى الأمبراطـورية • ويقـول : « لقـد تنجست سائر البيع والديارات بفعل هرقل المخالف عند الزامهم بأمانة خلقيدونية» (هكذا) •• لا شك أنه يعنى العقيدة المونوثلتية وكان اكبر مظهر لهذا الاضطهاد المسيحى العنيف للمسيحيين فى مصر •• هروب بنيامين أسقف الأسكندرية الى الصحراء للاحتماء بالرهبان • كما جرت بذلـك عادة أساقفة الكنيسة السـكندرية بعـامة •

ولا ضير الآن فى أن نسـمح للقلم أن يقتبس

شيئا مما كتبه المؤرخ بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر» ‥ حيث يقول :

« هكذا دفع سوء الحكم خير بلاد الدولة الامبراطورية الى مأزق ما أضيقه ‥ ولسنا نستطيع أن نعرف جناية من هذه ، أهى ذنب هرقل وقد أطاعه المقوقس (قيرس) فيما أمر به من الشر ؟ أم هى جريرة قيرس وقد عصى سيده وخان أمانته ؟ فمن الجلى أن هرقل كان يقصد فى البدء أمرا نبيلا ، فما كان أعظم أن يخلع على الكنيسة من السلام مثلما خلع على الدولة ‥ ولكنه لم يعرف مقدار ثبات الناس على دينهم وحرصهم عليه ‥ ولم يعرف أن العقيدة كانت متغلغلة فى أعمق فجاج الدولة ٠ وانه اذا شاء أن ينزعها منها بالقوة كان فى ذلك أشد الخطر على حياتها ٠ وكذلك كان اختياره لمن ينفذ أغراضه غير موفق ، فقد أرسل الى مصر رجلا ليعيد السلام ، فاذا به ظالم عات ، وأرسل كلمة يقصد بها نشر السلام ، فلم يؤدها رسوله أو لم يسمع بها الناس ٠ أما الاضطهاد فلا شك أنه قد وافق عليه أقره ، ولكنه قد يكون أقره بعد أن وجد

ألا ملجأ منه الا اليه ، في حين أن قيرس لجأ الى العسف بادىء ذى بدء ولم يجد وسيلة سواه .

« ومهما يكن من شيء .. فقد كان رأى الامبراطور فى القضاء على اختلاف المذاهب بأمر يأمر به ، رأيا بعث به الخيال والوهم ، فقد ظن أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدىء العواصف الثائرة من الخلاف فى المذاهب ، فما كان منه الا أن زاد العاصفة شدة .. ولم يستطع الصبر على الخيبة .. ولم يرض أن يدع الأمور الى الزمن ويلزم جانب الاعتدال .. فعزم على أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية فى مصر والشام ، فكان بعمله هذا يمهد السبيل فى القطرين أمام مطلع جنود الاسلام » .

وهذا هو ما حدث بالفعل .. اذ لم تكد تمضى على ذلك سنوات قلائل ، حتى تمكن المسلمون من فتح سوريا ومصر .. وعاش هرقل ليشهد بنفسه فقدان الامبراطورية لهذه الأقاليم ذات الأهمية الكبيرة ، والتى أنفق فيها جهده وعهده لاستعادتها من قبضة الفرس .. ووقف يودع سوريا الوداع الأخير ، مما حدا بالمؤرخ أومان الى القول .. « لو أن هرقل أدرك أن مملكته المخربة التى نهبها

الفرس والآفار عشر سنوات طوال ، والتى جف معينها مـن الرجال والمال .. كان مقـدرا لها أن تخضع لفاتح جديد أكثر رهبة من الأقدمين ... لتمنى أن يكون يوم انتصاره يوم موته !! » .

ويتفق عدد كبير من المؤرخين .. رغم الخلاف فى التفصيلات .. على أن أقباط مصر قد قدموا العون للمسلمين أثنـاء فتحهم لمصر وان كان هـذا لا ينفى حدوث بعض المقاومة . ولعل ما تناقلته الأنباء عن سياسة التسـامح الدينى التى يتبعها الفاتحون الجدد فى سوريا قد جاءت الى مصر .. ولو لم يظهر القبط فى مصر سوى شعور المودة وحده تجـاه الفاتحين .. لكان ذلك كافيا .. ولكنهم سـاعدوا فى اقامة الجسور على فروع النيل وقدموا المؤن لهم والعلوفة لخيولهم .. على حـد قول ابن عبد الحكم . ولا شك أن هذا يعد فى حد ذاته دليـلا واضحا على مدى الكراهية التى كان يضمرها الأقباط للدولة البيزنطية وسياستها .

ولا شك أن هذا الشعور الذى أبداه أقبـاط مصر تجـاه المسلمين ، قد أغضـب كثيرا الادارة البيزنطية فى مصر بجهازيها العسكرى والمدنى . فقد قام هؤلاء بطرد المصريين الموجودين فى حصن

بابليون أثناء حصار المسلمين له ، وأنزلوا بمن بقى منهم داخل الحصن صنوف العذاب لقهرهم على اعتناق مذهب الارادة الواحدة الذى أراده الامبراطور هرقل.. وكانت سورة الغضب التى تملكت البيزنطيين تعود الى دهشتهم من هؤلاء المسيحيين المصريين الذين ينحازون الى أصحاب عقيدة أخرى ضد المسيحيين من بنى دينهم ٠٠ ولم يفطن هؤلاء الى أن سماحة الاسلام وحرية العقيدة التى جاء بها هى التى جعلت الاقباط يقفون هذا الموقف ٠٠ بل ويندفعون اختيارا بعد ذلك الى اعتناق الدين الاسلامى كما يذكر المؤرخ بتلر فى كتابه حيث يقول بالحرف الواحد ٠٠ « أن القبط أخذوا عند ذلك يختارون الاسلام ويفضلون الدخول فيه ٠٠ اذ رأى هؤلاء أن الاسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ويساوى بينهم وبين الفاتحين فى شرف محلهم ، ويجعل منهم اخوانا لهم فى كل شىء ٠٠ يسهم لهم فى الفىء ولا يفرض عليهم الجزاء ٠٠ فكان هذا بالتالى باعثا قويا لكثير منهم على الدخول فى الاسلام خاصة بعد أن طحن المقوقس عقيدتهم طحنا ، وحطم يقينهم باضطهاده » .

وفي حصن بابليون ثانية •• اشتد خوف البيزنطيين من القبط في داخله رغم العذاب الذى صبوه على رءوسهم •• فقذفوا بهم الى السجون ، حتى اذا كان يوم جلاء البيزنطيين عن الحصن •• جئ بهؤلاء الأقباط وتم جلدهم •• وقطعت أيديهم •• ثم ألقى بهم خارج الحصن • ولم يتمالك المؤرخ حنا النقيوسى نفسه ، رغم تعصبه الشديد ، أن يظهر هذه الحقيقة في قوله عن البيزنطيين •• « أولئك هم أعداء المسيح الذين دنسوا الدين برجس بدعهم وفتنوا الناس عن ايمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الاوثان ولا الهمج ، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه » ، أما ساويرس بن المقفع •• فبعد أن يحدثنا عما لقيه الأسقف السكندرى بنيامين من المعاناة ، وما كان من أمر هروبه ، يخبرنا عن البلاء الذى ابتلى به مينا أخو بنيامين • ويقول ان المقوقس قبض عليه ووضع المشاعل في جانبيه •• ثم وضعه في جوال مملوء بالرمال ثم ألقى به في البحر ••

ولو شئنا أن نعدد مثل هذه الصور لما انتهينا •• خلاصة القول أن القبط تعرضوا في العهد البيزنطى الاخير في مصر لاضطهاد عنيف على يد

الاباطرة المسيحيين يتساوى ان لم يكن يفـوق تلك الاضطهادات التى شـهدوها زمن الاباطرة الوثنيين • وان هـذا الاضـطهاد لـم يتـوقف الا عندما فتح المسلمون مصرواعلنوا التسامح العام وحرية العقيدة حسبما تأمرهم بذلك شريعتهم•• « ولاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسـن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنـا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » •

وكان من أبرز الامثلة على ذلك أن عمـرو بن العاص •• الذى قاد عملية فتـح مصر •• نشر أمانا يسمح فيه للاسقف السكندرى بالعودة الى بيعته بعد هذا الهروب الذى دام حـوالى ثلاث عشرة سنة بسبب الاضطهاد المسيحى البيزنطى ويسجل ساويرس بن المقفع قول بنيامين بعـد عودته •• « لقد وجدت أمنـا من خوف •• واطمئنانا بعد بلاء •• لقد صرف عنا اضطهـاد الكفرة وبأسهم » •

وليس لنا هنا أن نخوض فى تفاصيل أنظمـة الحكم الاسلامى فى مصر ، ولا العلاقة الجديدة بين المسلمين والاقباط •• ولكن كل ما يمـكن قوله،

أن مسيحيي مصر تمتعوا بحرية عقيـــدية لم يألفوها من قبل حتى فى العهد المسيحى ذاته .. ممارسة طقوس عقيدتهم .. واصلاح كنائسهم وبنائها .. والاحتفـــاظ بوظائفهم .. ويكفى أن نشير الى ماكتبه يوحنا النقيوسى فى هذا الصدد ان عمرا لم يضع يده على شيء من أملاك الكنائس ولم يرتكب شيئا من النهب .. ولم يظهـــر أى شعور من التعصـــب .. بل انه حفظ الكنائس وحماها » .

ويعلق سير توماس أرنولد « لقد جلب الفتـــح الاسلامى الى هؤلاء القبط ، حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك بقـــرن من الزمان » .

فهرس الكتـــاب

المسيح المخلوق ـ المسيح المعجز ـ بولس ويوحنا ـ العبادات الشرقية واسرارها ـ الفلسفة ـ المسيحية والعقائد والفلسفات السائدة فى المجتمع الهلنستى ـ بولس السميسطائى ـ مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ـ مدرسة انطاكية ـ مجمعا الاسكندرية ـ مجمعا نيقوميديا وفلسطين ـ قسطنطين ووحدة الدولة ـ مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ـ تدخل الامبراطور فى العقيدة ـ المساواة فى الجوهر ـ مولود غير مخلوق ـ رأى يوساب القيسارى ـ ادانة الآريوسية ونفى أريوس ـ سياسة الامبراطور واعادة اريوس ـ رفض اثناسيوس اسقف الاسكندرية قرار الامبراطور ـ مجمع أورشليم سنة ٣٣٥ ـ موت أريوس ٠

صراع الايمان والسلطات ٠٠ (٩٠ ـ ١٢٢)

طفولة أثناسيوس وحياته الاولى ـ أثناسيوس فى نيقية ـ أسقف الاسكندرية الجديد ـ مكانة الاسكندرية المدينة والكنيسة ـ عقيدة أثناسيوس ـ الفكر الرومانى عن الكنيسة والدولة ـ قسطنطين والسيادة الامبراطورية ـ مجمع قيسارية سنة ٣٣٣ ـ مجمع صور عام ٣٣٥ ـ محاكمة أثناسيوس ـ رحيله الى القسطنطينية ـ نفيه الاول ـ أثناسيوس والغرب ـ النفى الثانى لأثناسيوس ـ مجمع سرديكا وتاييد الغرب لأثناسيوس ـ أثناسيوس وقسطنطيوس ـ ازدياد نفوذ الآريوسية ـ تجميع الغرب ضد الاسقف ـ الحرب النفسية ـ

الهجوم على الكنيســة ــ فرار اثناســيوس ــ واختفاؤه عند الرهبان ــ العلاقة الوثيقة بين اثناسيوس والرهبان ــ جوليان امبراطورا ــ محاولة اعادة الوثنية ــ سياسة الاضطهاد النبيل ــ جهود أثناسيوس فى الاسكندرية ــ نفيه الرابع ــ جوفيان امبراطورا ــ أثناسيوس فى الرها ــ أثناسيوس فى الاسكندرية ــ فالنتينيان وفالنز ــ النفى الخامس للاسقف السكندرى ــ ثورة بروكوبيوس ــ العود الأخير •

الاسكندرية زعيمة الكنائس •• (١٢٣ ــ ١٥١)

روما الكرسى البطرسى ــ القديس مرقس فى الاسكندرية ــ الفكر الهلنستى ــ انطاكية الكنيسة الرسولية ــ القسطنطينية والنسب الرسولى ــ المنافسة بين الكنائس ــ المجمع المسكونى الثانى وبوادر الصراع الكنسى ــ ثيوفيلوس السكندرى ويوحنا ذهبى الفم ــ انتصار الاسكندرية الاول ــ نسطوريوس ووالدة الاله ــ كيرلس والايمان الســـــكندرى ــ كيرلس وروما ــ انطاكية تنضم للقســطنطينية ــ مجمع افســـوس وعزل نسطوريوس ــ النصر الثانى للاسكندرية ــ حقد القسطنطينية وغيرة روما ــ يوطيخــا والطبيعة الواحـــدة ــ رفض روما والقسطنطينية للمذهب الجديد ــ معسكر روما القسطنطينية ــ ديوسقورس ويوطيخا ــ مجمع افسوس الثانى ــ انتصـــار الاسكندرية الثالث ــ مارقيان والاتجاه الى الغرب ــ المجمع الخلقيدونى المسكونى الرابع ــ هزيمة الاسكندرية ــ الانشقاق الدينى ــ الايمان الخلقيدونى أو مذهب الطبيعتين•

الليل ـ هرقل الابن ـ فوقاس وأوزوريس ـ الفرس والآفار والصقالبة يجتاحون الامبراطورية ـ كسرى وسـخريب التضحية والفداء ـ التفسخ العقيدى ـ الاضطهاد المسيحى ـ ظهور الاسلام ـ المسلمون وقريش ـ كتب الرسول « ص » الى الملوك والامراء ـ هرقل وسرجيوس ـ محاولة توحيـد العقيدة المسيحية ـ مذهب الارادة الواحـدة ـ رفض مصر وسوريا للمذهب الجديد ـ قيرس (المقوقس) والاضـطهاد المسيحى ـ هروب بنيامين الاسقف السكندرى ـ حديث بتلر ـ القبط والمسلمون ـ البيزنطيون والقبط ـ سجناء بابليون ـ شهادة ساويرس بن المقفع ويوحنا النقيوسى ـ عمرو بن العاص وعودة بنيامين ـ حرية العقيدة •

رقم الايداع



كتاب روز اليوسف

رئيس مجلس الإدارة
عبد الرحمن الشرقاوى

رئيس التحرير
فهمى حسين

المشرف الفنى
محمد سليم

العدد الحادى عشر

يناير ١٩٧٤

الاشتراكات والاعلانات يتفق عليها مع الادارة ٨٩ « أ » شارع قصر العينى تليفون ٢٠٨٨٨ – ٢٠٨٨٧ تليغرافيا روز اليوسف ج٠م٠ع٠


جميع المعلومات عن طريق أوليفتى
الآلة الحاسبة الكهربائية
أوليفتى
D I V I S U
1 2 3 4 5 6 7 8 9 0
ديفيسوما ٢٤
المكتب الاستشارى الفنى أوليفتى
ياكى ت ٢/٢/٤٩١٠١ ٢٦ شارع قصر النيل